

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة العنكبوت

الدكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي الديار المصرية

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة العنكبوت هي السورة التاسعة والعشرون في ترتيب المصحف وكان نزولها بعد سورة الروم ، أى : أنها من أواخر السور المكية في النزول ، إذ أن ترتيبها في النزول الثالثة والثمانون من بين السور المكية ، ولم ينزل بعدها قبل الهجرة سوى سورة المطففين (١) وعدد آياتها تسع وستون آية .

٢ - وجمهور العلماء على أنها مكية ، ومنهم من يرى أن فيها آيات مدنية . قال الألوسي : عن ابن عباس أنها مكية وذهب إلى ذلك - أيضا - الحسن وجابر وعكرمة . وعن بعضهم أنها آخر ما نزل بمكة ... وقال يحيى بن سلام : هي مكية ، إلا من أولها إلى قوله - تعالى - : وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ... (٢) .

والذى تضمنى إليه للنفس أن سورة العنكبوت كلها مكية ، وليس هناك روايات يعتمد عليها في كون بعض آياتها مدنية .

٣ - وقد افتتحت سورة للعنكبوت ببعض الحروف المقطعة : ألم ، ، ثم تحدثت عن تكاليف الإيمان ، وأنه يستلزم الإمتحان والاختبار ، ليميز الله الخبيث من الطيب ، وعن العاقبة الحسنة التى أهداها - سبحانه - لعباده المؤمنين الصادقين ، قال - تعالى - : : والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ، .

(١) راجع كتاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ج ١ ص ٢٧ .

(٢) تفسير الألوسي ج ٢٠ ص ١٣٢ .

٤ - ثم حكمت جانباً من أقوال المشركين، ومن دعاواهم الكاذبة، وردت عليهم بما يبطل أقوالهم ، وبما يزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم . . .

قال - تعالى - : وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء . إنهم لكاذبون . وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، وليسألن يوم القيامة عما كنوا بغترون .

٥ - ثم انتقلت السورة للكريمة بعد ذلك ، إلى الحديث عن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم ، فأشارت إلى قصة نوح مع قومه ، ثم ذكرت بشيء من التفصيل جانباً من قصة إبراهيم مع قومه ، ومن قصة لوط مع قومه وأتبع ذلك بإشارات مركزة تتعلق بقصة شعيب وهود وصالح وموسى مع أقوامهم . . .

ثم ختمت هذه القصص ببيان العاقبة السيئة التي صار إليها المكذبون لرسولهم ، فقال - تعالى - : فكلأ أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

٦ - ثم ضربت السورة للكريمة مثلاً لحال الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى في العبادة ، فشبهت ما هم عليه من كفر وشرك - في ضعفه وهوانه وهلمته - ببيت العنكبوت ، وأمرت الشبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، أن يزدادوا ثباتاً على ثباتهم ، وأن يستعينوا على ذلك ، بتلاوة القرآن الكريم ، وبإقامة الصلاة ، وبالإكثار من ذكر الله - تعالى - .

قال - سبحانه - : أتلى ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون .

٧ - ثم أمرت السورة للكريمة المؤمنين بأن يجادلوا أهل الكتاب بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وأرعدتهم إلى ما يقولونه لهم ، ومدحت

من يستحق المدح منهم ، وذمت من يستحق الذم ، وأقامت الأدلة الساطعة على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

قال - سبحانه - : : وكذلك أنزلنا إليك الكتاب ، فالذين آمنوا بالكتاب يؤمنون به ، ومن هؤلاء من يؤمن به ، وما يجد بآياتنا إلا الكافرون . وما كنت تتلون من قبله من كتاب ، ولا تحطه يمينك إذا لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجد بآياتنا إلا الظالمون . .

٨ - ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين ، حرضهم فيه على الهجرة من أرض الكفر إلى دار الإيمان ، ورغبهم في ذلك بوسائل منها : إخبارهم بأن الآجال بيده الله - تعالى - وحده ، وكذلك الأرزاق بيده وحده ، وأن من استجاب لما أمره الله - تعالى - به ، أعطاه - سبحانه - الكثير من خيره وفضله . قال - تعالى - : : يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ، كل نفس ذائقة الموت ، ثم إني ترجعون . . .

٩ - ثم ساق - سبحانه - في أواخر السورة ، ألواناً من تناقضات المشركين حيث إنهم إذا سألهم سائل عن خلق السموات والأرض . . . قالوا : الله - تعالى - هو الذي خلقهما ، ومع ذلك فهم يشركون معه في العبادة آلهة أخرى ، وإذا أحاط بهم الموجرم في السفن . . . دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما فجأهم إلى البر إذا هم يشركون ، وهم يعيشون في حرم آمن للناس يتخطفون من حولهم . . . ومع ذلك فهم بالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون .

هذا شأنهم ، أما المؤمنون الصادقون فقد وعدهم الله - تعالى - بما يقر أعينهم فقال في ختام السورة : والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين . .

١٠ - وهكذا نرى هذه السورة الكريمة ، وقد حدثتنا - من بين ما حدثتنا - عن الإيمان وتكاليفه ، وعن سنن الله في خلقه ، وعن قصص بعض الأنبياء

مع أقوامهم ، وعن هوان الشرك والشركاء وعما بين المؤمنين على طاعة الله ،
وعن علاقة المؤمنين بفهمهم ، وعن البراهين الساطعة الناطقة بأن هذا القرآن
من عند الله ، وعن أن المؤمن لا يليق به أن يقيم في مكان لا يستطيع فيه أن
يؤدى شعائر دينه ، وعن سوء عاقبة الأشرار ، وحسن عاقبة الأخيار . .
فسأل الله — تعالى — أن يجعلنا جميعا من عباده الأخيار .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة : مدينة نصر

الموافق

د . محمد سيد طنطاوى

١٦ من رجب سنة ١٤٠٥ هـ

١٩٨٥ / ٢ / ٦ م

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ۝ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا
يُفْنَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ
اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا
يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ
الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝

سورة الماعون من السور التي افتتحت ببعض حروف التهجى ، ألم ،
ويبلغ عدد السور التي افتتحت بحروف التهجى ، تسعا وعشرين سورة .

وقد سبق أن قلنا : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف
المقطعة قد وردت في افتتاح بعض السور ، على سبيل الإيقاظ والتثنية ، فلهذا
تقدم القرآن الكريم ، فكان الله - تعالى - يقول لا ولئك المعارضين في أن
القرآن من عند الله : هاتم القرآن ترويه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤولفون

منه كلامكم ، ومنظروا من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي
تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله ،
فماتوا مثله ، وادهوا من شتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك . .

والاستفهام في قوله - سبحانه - : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا
آمنوا وهم لا يفتنون » للإيثار و « حسب » من الحسبان بمعنى الظن . وقوله :
« يفتنون » من الفتن ، بمعنى الاختبار والامتحان .

يقال : فتن الذهب بالنار ، أى : أدخلته فيها لتعلم الجيد منه من
الخبث .

وجملة « أن يتركوا » سدت مسد مفعولى حسب ، وجملة « أن يقولوا »
في موضع نصب ، على معنى : لأن يقولوا ، وهى متعلقة بقوله : « يتركوا »
وجملة « وهم لا يفتنون » في موضع الحال من ضمير « يتركوا » .

والمعنى : أظن الناس أن يتركوا بدون إمتحان ، واختبار ، وإبتلاء ،
وبدون نزول المصائب بهم ، لأنهم نطقوا بكلمة الإيمان ؟ إن ظنهم هذا ظن
باطل ، وهم فاسد ، لأن الإيمان ليس كلمة يقال باللسان فقط ، بل هو عقيدة
تكلف صاحبها الكثير من ألوان الإبتلاء والاختبار ، عن طريق التعرض لفقد
الأموال والأنفس والثمرات ، حتى يتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

قال القرطبي : والمراد بالناس قوم من المؤمنين كانوا بمكة ، وكان
للكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، كسلمة بن هشام ،
وعياش ابن ربيعة ، والوليد بن الوليد . . فكانت صدورهم تضيق بذلك ،
وربما استنكروا أن يمكن الله الكفار من المؤمنين . قال مجاهد وغيره :
فزلت هذه الآية مسلمية ومعلية أن هذه هى سيرة الله في عباده ، اختبار
للمؤمنين وقتنة .

قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت زالت بهذا السبب أو مافى معناه من الأقوال ، فهي باقية في أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، موجود حكمها بقية الدهر . . . (١) .

وقوله - سبحانه - : « ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » ، مؤكدا لما قبله من أن ظن الناس أن يتركوا بدون ابتلاء ، لقولهم آمنا ، هذا الظن في غير محله ، لأن سنة الله قد اقتضت أن يدفع الناس بعضهم ببعض ، وأن يجعل الكافرين يتصارعون مع المؤمنين ، إلا أن العاقبة في النهاية للمؤمنين .

والمقصود بقوله - تعالى - : « فليعلمن الله » ، إظهار علمه - سبحانه - ، أو المجازاة على الأعمال .

أى : ولقد فتنا الذين من قبل هؤلاء المؤمنين من أصحابك - أيها الرسول الكريم - ، « فليعلمن الله الذين صدقوا » ، أى : فليظفرن الله - تعالى - في عالم الواقع حال الذين صدقوا في إيمانهم ، من حال الكاذبين منهم ، حتى يتركشف للناس ما هو غائب عن علمهم .

أو المعنى : ولقد فتنا الذين من قبلهم من المؤمنين السابقين . كأتباع نوح وهود وصالح وغيرهم ، فليجزين الذين صدقوا في إيمانهم يستحقون من ثواب ، وليجزين الكاذبين بما يستحقون من عقاب ، وترتب المجازاة على العلم ، أو السبب مقام المسبب .

قال الإمام ابن جرير : قوله : « فليعلمن الله الذين صدقوا » ، أى : فليعلمن الله الذين صدقوا منهم في قولهم آمنا . وليعلمن الكاذبين منهم في قولهم آمنا .

قولهم ذلك ، واقفه عالم بذلك منهم ، قبل الاختبار ، وفي حاله الاختبار ، وبعد الاختبار ، ولاكن معنى ذلك : وليظهرن الله صدق الصادق منهم في قوله آمنا بالله ، من كذب الكاذب منهم . . .

وذكر أن هذه الآية نزلت في قوم من المسلمين ، هذبهم المشركون ، ففتن بعضهم ، وصبر بعضهم على أذاهم ، حتى أقامهم الله بفرج من عنده ، (١) وفي معنى هاتين الآيتين وردت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : « أم حسبكم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » (٢) ، وقوله - سبحانه - : « ولنبولونكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبولوا أخباركم » (٣) .

وقد ساق الإمام القرطبي عند تفسيره لهاتين الآيتين - من سورة العنكبوت - عددا من الأحاديث النبوية ، منها قوله : « روى البخارى عن خباب بن الارت قالوا : شكونا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو متوسد برده له في ظل العكبة ، فقلنا له : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعونا ؟

فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض ، فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد لجمه وعظمه ، فما يصرفه ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولاكنكم تستعجلون » (٤) .

(١) تفسير ابن جرير ج ٢٠ ص ٨٣ .

(٢) سورة التوبة . الآية ١٦ (٣) سورة محمد . الآية ٣١ .

(٤) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٢٢٤ .

والخلاصة ، أن المقصود من الآيتين تنبيه الناس في كل زمان ومكان ، إلى أن ظن بعض الناس بأن الإيمان يتعارض مع الابتلاء بالأساء والضراء ظن خاطئ ، وإلى أن هذا الابتلاء سنة ماضية في السابقين وفي اللاحقين إلى يوم القيامة .

ثم بين - سبحانه - أن عقابه للمرتكبين للسيئات واقع بهم ، وأنهم إذا ظنوا خلاف ذلك ، فظنهم من باب الظنون السيئة القبيحة ، فقال - تعالى - :
 « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ، سواء ما يحكمون » .

و « أم » هنا منقطعة بمعنى بل ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ . وقوله :
 « أن يسبقونا » سادس مفعول حسب . وأصل السبق : التفويت والتقدم على الغير . والمراد به هنا : التمجيز والمعنى : بل أحسب الذين يعملون الأعمال السيئات كالكفر والمعاصي ، « أن يسبقونا » أى : أن يعجزونا فلا نقدر على عقابهم ، أو أن في إمكانهم أن يهربوا من حسابنا لهم ؟

إن كانوا يظنون ذلك فقد : « سواء ما يحكمون » أى : بئس الظن ظنهم هذا ، وبئس الحكم حكمهم على الأمور .

فساء بمعنى بش ، و « ما » موصولة و « يحكمون » صلتها ، والعائد محذوف ، والمخصوص بالذم محذوف . أى : بش حكما يحكمونه حكمهم ذلك .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدخل السرور والاطمئنان على قلوب عباده المؤمنين الصادقين فقال - تعالى - : « من كان يرجو لقاء الله ، فإن أجل الله لآت ، وهو السميع العليم » .

أى : من كان من الناس يرجو لقاء الله - تعالى - يوم القيامة لقاء يسره ويرضيه ، ويطلعهم في ثوابه وعطائه ، فليثبت على إيمانه ، وليواظب على العمل الصالح ، « فإن أجل الله لآت » .

أى : فإن الأجل الذى حدده الله - تعالى - لموت كل نفس والبعث والحساب ، لا فلاح ولا محالة فى وقته الذى حدده - سبحانه - ، وهو السميع ، لأقوال خلقه ، العالم ، بما يخفونه وما يعلنونه :

فالرجاء فى لقاء الله ، بمعنى الطمع فى ثوابه ، ومنهم من فسر به معنى الخوف من حسابه - سبحانه - .

قال صاحب الكشف : لقاء الله : مثل للوصول إلى العاقبة ، من تلقى ملك الموت ، والبعث ، والحساب ، والجزاء ، مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد همد طويل ، وقد أطلع مولاه على ما كان يأتى ويذر ، فإما أن يلقاه ببشر ومرحيب ، لما رضى من أفعاله ، أو بضد ذلك لما سخطه منها .. وقيل : « يرجو ، يخاف ، كما فى قول الشاعر :

إذا سمعته الدبر لم يرج لسمها .. (١) أى : إذا سمعته للنحل لم يخف لسمها .

وعلى كلا التفسيرين للرجاء ، فإن الآية الكريمة تبشر المؤمنين بما يدخل السرور على نفوسهم ، وتعددهم بأنهم متى ثبتوا على إيمانهم ، وأحسنوا أعمالهم ، فإن ثوابهم سيظفرون به كاملاً غير منقوص ، بفضل الله وإحسانه .

وقوله - سبحانه - : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه » معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه .

أى : ومن جاهد فى طاعة الله ، وفى سبيل إعلاء كلمته ، ونصرة دينه ، فإنما يعود ثواب جهاده ونفعه لنفسه لا لغيره .

« إن الله - تعالى - لغنى عن العالمين ، جميعاً ، لأنه - سبحانه - لا تنقصه

طاعة مطيع ، كما لا تضره معصية عاص ، وإنما انفسه يعود ثواب المطيع ،
وعليها يرجع عقاب المسى . .

ثم وضح - سبحانه - ما أعدّه للمؤمنين الصادقين من ثواب جدير فقال :
والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم . . . أى : لنستتر
عنهم سيئاتهم ، ولنزيلنها - بفضلنا وإحساننا - من صحائف أعمالهم .

ثم بعد ذلك ، ولنجزينهم أحسن الفى ، كانوا يعملون ، أى : ولنجزينهم
بأحسن الجزاء على أعمالهم الصالحة التى كانوا يعملونها فى الدنيا ، بأن نعطيهم
على الحسنه عشر أمثالها .

قال الجمل ماملخصه : قوله : د والذين آمنوا وعملوا الصالحات . . . يجوز
أن يكون مرفوعا بالابتداء ، والخبر جملة القسم المحذوفه ، وجوابها أى :
ولله لنكفون . ويجوز أن يكون منصوبا بفعل مضمر على الاشتغال . أى :
ونخلص الذين آمنوا من سيئاتهم .

وقال د بأحسن ، لأنه - سبحانه - إذا جازاهم بالأحسن ، جازاهم
بما هو دونه ، فهو من التنبيه على الأدنى بالأعلى ، (١)

ثم بين - سبحانه - أن طاعة الله - تعالى - يجب أن تقدم على كل طاعة فقال :

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ
جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرَجِعِكَ
فَإُنْصِتْ لَهُمَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ
فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ
مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ
الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ
وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾
وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا
كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول الآية الأولى روايات منها ما أخرجه
الترمذي ، من أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص ، وذلك لأنه حين أسلم ، قالت له
أمه حنة بنت أبي سفيان : يا سعد بلغني أنك صبت ، فوالله لا يظنني سقفا

بيده ، وإن الطعام والشراب على حرام ، حتى تكفر بمحمد (صلى الله عليه وسلم ... فجاء سعد إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فشكى إليه ما قالته أمه .

فنزات هذه الآية . فجاء سعد إليها فقال لها : يا أماء لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفسك نفسك ما تركت ديني . فسكلى إن شئت ، وإن شئت فلا تأكل . فلما يشمت منه أكلت وشربت . (١) .

وقوله : « حسناء منصوب على أنه نعم بالمصدر محذوف . أى : ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ، وعبر بالمصدر للمبالغة في وجوب الإحسان إليهما ، بأن يكون باراً بهما ، وعطوفا عليهما ، وسخياً بهما .

وقوله - سبحانه - : « وإن جاهدك ، معطوف على ما قبله بإضمار القول ، أى : ووصينا الإنسان بوالديه حسنات ، وقتلناه « إن جاهدك ، أى : إن حلاك وأمرأك « لتشرك بي ، في العبادة أو الطاعة » ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، في ذلك ، فإنه لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق :

وقوله - سبحانه - : « ما ليس لك به علم ، بيان للواقع ، فهذا الفيد لا مفهوم له ، لأنه ليس هناك من إله في هذا الكون ، سوى الله - عز وجل - .

وقوله - تعالى - : « إلى مرجعكم فأنتنكم بما كنتم تعملون ، تذييل المقصود به التحذير من معصيته - سبحانه - .

أى : إلى مرجعكم جميعاً - أيها الناس - يوم القيامة ، فأحاسبكم على أعمالكم حساباً دقيقاً ، وأجازى الذين أساءوا بما عملوا ، وأجازى الذين أحسنوا بالحسن .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٢٢٨

(م ٢ - العنكبوت)

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم ، بفضلنا وإحساننا ، في الصالحين ، أى ، في زمرة الأقبام ، الصالحين ، الذين رغبنا عنهم ، ورضوا عنا .

• • •

ثم يرسم القرآن الكريم بعد ذلك صورة واضحة لأصحاب القلوب الميضة ، والنفوس الضعيفة ، ويحكى جانباً من أقوالهم الفاسدة ، ودعائهم الكاذبة .

وقوله — سبحانه : « ومن الناس من يقول آمنا بالله . . » بيان لحال قوم ضعف إيمانهم ، واضطرب يقينهم ، بعد بيان حال المؤمنين الصادقين في قوله : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ، .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : « ومن الناس من يقول آمنا بالله . . » قال مجاهد : نزلت في ناس من المنافقين بمكة ، كانوا يؤمنون ، فإذا أودوا رجعوا إلى الشرك ، وقال عكرمة : كان قوم قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج معهم إلى بدر ، فقتل بعضهم ، (١) .

والمعنى : « ومن الناس من يقول ، بلسانه دون أن يواطىء قلبه ، آمنا بالله ، .

وقوله « فإذا أودى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » بيان لحال هذا البعض من الناس عند ما تنزل بهم المصائب والفتن .

أى : فإذا أودى هذا البعض - بعد قوله آمنا بالله - من أجل هذا القول

ومن أجل تركه الدين للباطل ، ودخوله في الدين الحق وجعل فتنة للناس ، له أي جعل عذابهم له ، ولإيمانهم إياه ، كعذاب الله ، أي بمنزلة عذاب الله في القعدة والآلم ، فيرتب على ذلك أن يتزائل إيمانه ، ويضعف يقينه بل ربما رجع إلى الكفر بعد الإيمان .

وفي جعل هذا لبعض ، فتنة للناس ، كعذاب الله ، دليل واضح على ضعف إيمانه ، وفساد تفكيره ، لأن عذاب الناس له دافع ، أما عذاب الله فلا دافع له ، ولأن عذاب الناس يرتب عليه ثواب عظيم ، أما عذاب الله فهو بسبب غضب الله - سبحانه - على من عصاه ، ولأن عذاب الناس معروف أمده ونهايته أما عذاب الله فلا يعرف أحد مداه ونهايته .

ثم بين - سبحانه - حال هذا الفريق ، إذا ما آمن الله - تعالى - على المؤمنين الصادقين ، بنصر ، فقال : ولئن جاء نصر من ربك ، ليقولن إنا كنا معكم . والضمير في قوله : ليقولن ، بضم اللام - يعود إلى من ، في قوله : من يقول ، باعتبار معناه ، كما أن أفراد الضمائر العائدة إليها باعتبار لفظها . أي : هكذا حال ضعاف الإيمان ، عند الشدائد يساوون عذاب الناس بعذاب الله ، ولا يشتتون على إيمانهم . أما إذا جاءكم النصر - أيها الرسول الكريم - فإن هؤلاء الضعاف في إيمانهم ، يقولون بكل ثقة وناكيد : إنا كنا معكم مشايعين ومؤيدين ، ونحن إنما أكرهنا على ما قلنا ، وما دام الأمر كذلك فأشركوتنا معكم فيما ترتب على النصر من مغائم وخيرات .

وقوله - سبحانه - : د أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ، رد عليهم في دعوائهم الإيمان ، وفي قولهم للمؤمنين : إنا كنا معكم ، والاستفهام لإفكار ما زعموه ، ولتقرير علم الله - تعالى - الشامل للسر والعلاية .

أي : إن الله - تعالى - عالم بما في صدور العالمين جميعا من خير وشر ، وإيمان وكفر ، وإن هؤلاء الذين يقولون آمنا ، ليس الله - تعالى - في حاجة

إلى قولهم ، فهو - سبحانه - يعلم السر وأخفى : « وليعلمن الله ، - تعالى - علما تاما ، الذين آمنوا ، به حق الايمان ، وليعلمن ، حال المنافقين ، علما لا يخطئ عليه شيء من حركاتهم وسكناتهم ، وسيعجزهم بما يستحقون من عقاب ، وأكد - سبحانه - علمه بلام القسم وبنون التوكيد ، لارد على دعاوى ضعاف الايمان بأقوى أسلوب ، وأبلغه ، حتى يقلعوا عن فسادهم ، ويتبعوا المؤمنين الصادقين في ثباتهم .

ثم حكي - سبحانه - بعد ذلك ما زعمه أئمة الكفر من دعاوى باطلة ورد عليها فقال : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم » : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا على سبيل التنزيل أو الاغراء : اتبعوا سبيلنا أي طريقنا الذي وجدنا عليه آباءنا ، وهو عبادة الأصنام ، ولنحمل عنكم خطاياكم يوم القيامة ، إن كان هناك بعث وحساب .

واللام في قوله : « ولنحمل ، لام الأمر ، كأنهم أمرين أنفسهم بذلك ، ليغزوا المؤمنين باتباعهم .

أي : اطمثنوا إلى أننا لن نتخلى عنكم ، وإن نقض عهدنا معكم في حمل خطاياكم لو اتبعتمونا أو هو أمر في أويل الشرط والجزاء ، أي : إن اتبعتمونا سبيلنا لنحمل خطاياكم .

وقد رد الله - تعالى - زعمهم هذا بقوله : « وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء » لأنهم الكاذبون ، أي : وما هؤلاء الكافرين بحاملين لشيء من خطايا غيرهم التي زعموا حملها يوم القيامة ، ولأنهم الكاذبون في كل أقوالهم .

و « من ، الأولى بيانية ، والثانية لتني حمل أي خطاياهم ما صغرت ، وقد جاء التكذيب لهم بهذا الأسلوب المؤكد ، حتى يحرس ألسنتهم ويحمو كل أثر من أقوالهم من الأذهان .

ثم بين - سبحانه - أن الأمر على عكس ما زعموا فقال : « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » .

أى : ليس الأمر - كما زعموا من أنهم يحملون خطايا المؤمنين ، بل الحق أن أئمة الكفر هؤلاء سيحملون خطاياهم كاملة غير منقوصة ، وسيحملون فوقها خطايا آخر ، هى خطايا تسببهم فى إضلال غيرهم ، وصرفه عن الطريق الحق .
وعبر عن الخطايا بالأثقال ، للاشعار بغاية ثقلها ، وفداحة حملها ، وعظم العذاب الذى سيقرب عليها .

« وإيسألن يوم القيامة » ، سؤال تأنيب وتوبيخ « عما كانوا يفترون ، أى :
أى عما كانوا يفتلقونه فى الدنيا من أكاذيب ، وأباطيل ، أدت بهم إلى سوء المصير .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الدين يضلونهم بغير علم ، ألا ساء ما يزرون » .

قال الإمام ابن كثير : وفى الصحيح : من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الإثم ، مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا ، (١) .

• • •

وبعد هذا الحديث عن أنواع الناس ، وعن أقوال المشركين الفاسدة ، وعن سوء هاقبتهم ، ساقى - سبحانه - جانباً من قصة نوح وإبراهيم - عليهما السلام - فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ
سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ
وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ
لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾
إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثِنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ
وَأَشْكُرُوا لَهُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾

قال الألوسي : قوله : : ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، . شروع في بيان
افتتان الأنبياء - عليهم السلام - بأذية أعدائهم ، اثر بيان المؤمنين بأذية الكفار
تأكيدا للانكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء ،
وحنالهم على الصبر ، فإن الأنبياء - عليهم السلام - حيث ابتلوا بما أصابهم
من جهة أعدائهم من فنون المسكاره وصبروا عليها ، فلأن يصبر هؤلاء المؤمنون
أولى وأخرى . . (١) .

و نوح ، - عليه السلام - ينتهي نسبه إلى شيث بن آدم ، وقد ذكر نوح
في القرآن في ثلاث وأربعين موضعا ، وجاءت قصته مع قومه بصورة فيها
شيء من التفصيل ، في سور : هود ، والأعراف ، والمؤمنون ، ونوح .

وقوم الرجل : أقرباؤه الذين يجتمعون معه في جد واحد . وقد بقيم
الرجل بين الأجناب فيسميهم قومه مجازا للمجاورة .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - إليهم نبيهم
نوحا ، ليدلهم على طريق الحق والرشاد .

والمعنى : ولقد أرسلنا نبينا نوحا - عليه السلام - إلى قومه ، لكي يأمرهم
بإخلاص العبادة لنا ، وينهاهم عن عبادة غيرنا ، فلبث فيهم ألف سنة
الاخمين عاما ، يدعوهم إلى الدين الحق ، ليلا ونهارا ، سرا وعلانية .

قالوا : بعث الله نوحا وهو في سن الأربعين من عمره ، ولبث يدعو
قومه إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، ألف سنة الاخمين عاما ، وعاش
بعد الطوفان ستين سنة ، فيكون عمره كله ألف سنة وخمسين سنة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فلم جاء المميز أولا بالسنة ، وثانيا
بالعام ؟ قلت : لأن تكرير اللفظ الواحد ، حقيق بالإجتنا في البلاغة ،
إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتج من تفخيم أو تهويل أو تنويه
أو نحو ذلك ، (١) .

والمقصود بذلك هذه المدة الطويلة التي قضها نوح - عليه السلام - مع
قومه ، تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتثبيته ، فكان الله - تعالى -
يقول له : يا محمد لقد لبث أخوك نوح تلك المدة الطويلة ، ومع ذلك لم
يؤمن معه إلا قليل ، فعليك أن تقتدى به في صبره ، وفي مقاو لته لقومه .
وقوله - سبحانه - : فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ، بيان لسوء عاقبة المكذبين
لنوح - عليه السلام - بعد أن مكث فيهم تلك المدة الطويلة .

والطوفان : قد يطلق على كل ما يطوف بالشئ على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام ، وقد غلب إطلاقه على طوفان الماء ، وهو المراد هنا .

أى مكث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى إخراجهم من عبادة الله - تعالى - ولكنهم كذبوه ، فأخذهم الطوفان ، والحال أنهم كانوا مستمرين على الظلم الكفر ، دون أن تؤثر فيهم مواعظ نبيهم ونذره .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة نوح ومن آمن معه فقال : « فأنجيناها وأصحاب السفينة : » أى : فأنجينا نوحا ومن آمن معه ، وهم الذين ركبوا معه في السفينة . قيل : كان عدد هؤلاء الذين آمنوا به ثمانين ما بين ذكر وأنثى وقيل : كانوا أقل من ذلك :

والضمير في قوله - سبحانه - : « وجعلناها آية للعالمين ، للسفينة ، أو للحادثة والقصة .

أى : فأنجينا نوحا ومن ركب معه في السفينة : وجعلناها أى هذه الحادثة عبرة وعظة للعالمين ، حيث شاهدوا سوء عاقبة الكفر والظلم على مر الأيام والأعوام .

قالوا : ومن مظاهر وجوه العبرة في قصة نجاة نوح ومن معه : أن السفينة التى حملتهم وأفلتهم بقيت مدة طويلة ، وهى مستقرة على جبل الجودى ، الذى يرى كثير من المؤرخين أن مكانه بشمال العراق ، بالقرب من مدينة الموصل . ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة إبراهيم - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى - : وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه . . .

ولفظ إبراهيم ، منصوب بفعل مضمر . أى : واذا ذكر - أيها المخاطب - إبراهيم - عليه السلام - وقت أن قال لقومه : اعبدوا الله - تعالى - وحده ، وصوروا أنفسهم عن كل ما يغضبه ذلكم ، الذى أمركم به من العبادة والتقوى

«خير لكم، من الشرك، ومن كل شيء في هذه الحياة وإن كنتم تعلمون،
أى : إن كنتم من ذوى العلم والفهم بما هو خير وبما هو شو .

فأنت ترى أن إبراهيم - عليه السلام - قد بدأ دعوته لقومه بأمرهم
بإخلاص العبادة لله - تعالى - ، وبالخوف من عقابه ، ثم ثنى بتشديد هذه
الحقيقة إلى قلوبهم ، ببيان أن إيمانهم خير لهم ، ثم ثلث بتبيين عواطفهم
نحو العلم النافع ، الذى يتقنا فى مع الجمل .

ثم بعد ذلك نفرهم من فساد ما هم عليه من باطل فقال - كما حكى القرآن
عنه : : إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً ، .

والآوثان : جمع وثن ، وتطلق الآوثان على التماثيل والأصنام التى
كانوا يصنعونها بأيديهم من الحجارة أو ما يشبهها ، ثم يعبدونها من دون الله
- تعالى - .

وقوله : : وتخلقون إفكاً ، أى : وتكذبون كذباً واضحاً ، حيث سميت
هذه الآوثان آلهة ، مع أنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تغنى عنكم ولا عن
نفسها شيئاً .

أوبكون قوله «تخلقون» بمعنى وتصنعون وتمتحنون . أى : وتصنعون
بأيديكم هذه الآوثان صنماً . من أجل الإفك والكذب والانصراف عن كل
ما هو حق إلى كل ما هو باطل .

ثم بين لهم تفاعلة هذه الآوثان فقال : «إن الذين تعبدون من دون الله،
من آوثان وأصنام ، لا يملكون لكم رزقاً ، أى : لا يملكون لكم شيئاً من
الرزق حتى ولو كان غايه فى القلة .

وما دام الأمر كذلك : «فابتنوا عند الله - تعالى - وحده» «الرزق»
الذى يكفيناكم ويغنيكم ، واهبدوه ، وحده - سبحانه - «واشكروا له»
نعماءه ومنته وعطاياه .

فَاتَمَّ وَجْمَعِ الْخَلْقِ دِلَالِيهِ، وَحَدَهُ دَرَجَعُونَ، لَا إِلَى غَيْرِهِ، فَيَجَازِيكُمْ عَلَى
أَعْمَالِكُمْ وَهَكَذَا نَرَى إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَدْ سَلَكَ فِي دَعْوَةِ قَوْمِهِ إِلَى الْحَقِّ
أَبْلَغَ الْأَسَالِبِ وَأَحْكَمَهَا، حَيْثُ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ، وَبَيْنَ لَهُمْ مَنَافِعَ
ذَلِكَ، وَحَرَضَهُمْ عَلَى سُلُوكِ طَرِيقِ الْعِلْمِ لَا طَرِيقَ الْجَهْلِ، وَنَفَرَهُمْ مِنْ عِبَادَةِ
الْأَوْثَانِ، حَيْثُ بَيَّنَّ لَهُمْ تَفَاهُتَهَا وَحَقَارَتَهَا، وَعَجَزَهَا، وَحَضَرَهُمْ عَلَى طَلَبِ
الرِّزْقِ مِنْ يَدِ اللَّهِ وَهُوَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - الَّذِي إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْآبُ .

ثُمَّ أَخَذَ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَحْذَرُ قَوْمَهُ مِنَ الْاسْتِعْرَارِ فِي
تَكْذِيبِهِ وَيَلْفَتُ أَنْظَارَهُمْ إِلَى أَنَّ هُنَاكَ حِسَابًا وَثَوَابًا وَعِقَابًا وَبَعَثْنَا، وَأَنْ
عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَعَذَّرُوا بِمَنْ قَبْلَهُمْ، فَقَالَ - تَعَالَى - :

وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ

قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلِغُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ

بَيَّضَ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَإِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا

فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ

وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ

وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ

وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ بِرَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

قال صاحب الكشف : وهذه الآية - وهي قوله - تعالى - : وإن تكذبوا والآيات لله بعدها إلى قوله : ، فما كان جواب قومه . . . محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم - صلوات الله عليه - لقومه ، وأن تكون آيات وقعت معترضة في شأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وشأن قريش ، بين أول قصة إبراهيم وآخرها .

فإن قلت : إذا كانت من قول إبراهيم ، فما المراد بالأمم من قبله ؟ قلت : المراد بهم قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم ، وكفى بقوم نوح أمة في معنى أمم جملة مكذبة . . . (١) .

وقال الإمام ابن كثير : والظاهر من السياق أن كل هذه الآيات ، من كلام إبراهيم الخليل - عليه السلام - ، يحتاج عليهم لإثبات المعاد ، لقوله بعد هذا كله : ، فما كان جواب قومه ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : ، وإن تكذبوا . . . معطوف على معطوف ، والتقدير : إن تطيعوني - أيها الناس - فقد فزتم ونجوتم ، وإن تكذبوني فيما أخبرتكم به ، فلستم بدعا في ذلك ، فقد كذب أمم من قبلكم رسولهم . فكانت عاقبة المكذبين خسرا .

ثم بين لهم إبراهيم - عليه السلام - وظيفته فقال : ، وما على الرسول إلا للبلاغ المبين ، أي : لقد بلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، وتلك هي وظيفتي التي كلفني بها ربي ، وليس على واهي ، أما الحساب والجزاء فردد إلى الله تعالى وحده . ثم ساق - سبحانه - ما يدل على أن البعث حق ، وأنه - تعالى - لا يمجزه شيء ، فقال : ، أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده .

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ٤٤٧

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٨٠

والاستفهام لتوبيخهم على إنكارهم هذه الحقيقة ، وعدم تعقلهم لما يدل عليها دلالة واضحة والواو للعطف على مقدر :

والمعنى : ألم ينظر هؤلاء المشركون المنكرون للبعث ، ويعلموا كيف خلق الله - تعالى - الخلق ابتداء ، ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة وهي أمون عليه ،

لأنهم ليرون كيف يبدى الله الخلق في النبتة النامية ، وفي الشجرة الباسقة ، وفي كل عالم يكن ثم بعد ذلك يكون ، فكيف أنكروا إعادة هذا المخلوق إلى الحياة مرة أخرى ، مع أنه من المسلم عند كل ذى عقل ، أن الإعادة أيسر من الخلق ابتداء ؟

فآلية الكريمة تقررهم على إنكارهم البعث ، ونسوق لهم الأدلة الواضحة على إمكانيته .

واسم الإشارة في قوله : «إن ذلك على الله يسير» يعود إلى ما ذكر من الأمرين وهما : بدء الخلق وإعادةه إلى الحياة مرة أخرى .

أى : إن ذلك الذى ذكرناه لكم من خلقكم ابتداء ، ثم إعادةكم إلى الحياة بعد موتكم ، يسير وهين على الله ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء .

ثم أمر - سبحانه - رسوله أن يلفت أنظار قومه إلى التأمل والتدبر في أحوال هذا الكون ، لعل هذا التأمل يهديهم إلى الحق فقال : «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ...»

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنكرين للبعث : سيحوا في الأرض ، وتتبعوا أحوال الخلق ، وتأملوا كيف خلقهم الله - تعالى - ابتداء على أطوار مختلفة ، وطبائع متباينة ، وأحوال شتى ... ثم قل لهم بعد

كل ذلك ، الله الذى خلق الخلق ابتداء على تلك الصورة المتنوعة والمنكازة ، هو وحده الذى ينشئ النشأة الآخرة ، أى : هو وحده الذى ينشئهم ويخلقهم ويعيدهم إلى الحياة مرة أخرى ، بعد أن أوجدتهم فى المرة الأولى .
لجملة : ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، معطوفة على قوله : وسيروا .
وداخله معها فى حيز القول .

والكيفية فى هذه الآية باعتبار . بدء الخلق على أطوار شتى ، وصور متعددة .

وفى الآية السابقة وهى قوله : أولم يروا كيف يبدى الله الخلق ثم يعيده . باعتبار بدء الخلق من مادة وغيرها .

والمقصود بالامر بالسير : التدبر والتأمل والاعتبار ، لأن من شأن التنقل فى جنات الأرض ، أنه يوقظ الحس ، ، ويبحث على التفكير ، ويفتح للعين والقلب على المشاهدة الجديدة التى لم تألفها العين . ولم يتأملها القلب قبل ذلك وجاء الامر بالسير عاما ، لأن كل إنسان - فى كل زمان ومكان - يأخذ من وجوه العبرة والعظة - عن طريق هذا السير - ما يتناسب مع عقله وثقافته ويثبته ، وفكره ، ومستواه المادى ، والأجتماعى ، والحضارى .

وقوله - سبحانه - إن الله على كل شىء قدير ، تعليل لما قبله . أى : هو - سبحانه - قادر على النشأة الأولى ، وعلى النشأة الآخرة ، لأن قدرته لا يعجزها شىء ، ولا يحول دونه نفاذها حائل .

وهو - سبحانه - يعذب من يشاء ، تعذيبه ويرحم من يشاء ورحمته وإيابه ، وحده لا إلى غيره ، تعلقبون ، أى : ترجعون جميعا فيحاسبكم على أعمالكم .

« وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ، أى : وما أنتم - أيها الناس - بقادرين على أن تفلتوا أو تهربوا من لقاء الله - تعالى - ومن حسابه ، سواء أ كنتم في الأرض ، أم كنتم في السماء ، إذ ليست هناك قوة في هذا الوجود تحول بينكم وبين الانقلاب إليه - سبحانه - ، والوقوف بين يديه للحساب والجزاء ؛

قال الشوكاني : « وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ، قال الفراء : ولا من في السماء بمعجزين الله فيها ... والمعنى : أنه لا يعجزه - سبحانه - أهل الأرض ولا أهل السماء في السماء لو كنتم فيها كما تقول : لا يفوتني فلان ما هنا ولا بالبصرة . يعنى : ولا بالبصرة لو صار إليها ... (١) .

وقوله - سبحانه - : « وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ، مؤكدا لما قبله . أى : لستم بقادرين على الهرب من لقاء الله - تعالى - في الآخرة ، وليس سواء من فاضر بضعركم ، أو من قريب يدفع عنكم حكمه وقضاه - سبحانه - .

ثم بين - سبحانه - مصير الكافرين فقال : « والذين كفروا بآيات الله ، الدالة على وحدانيته وقدرته ، وعلى ذاته وصفاته ...

وكفروا - أيضاً - بالأدلة الدالة على لقاءه ، بأن أنكروا البعث والحساب والجزاء ، أولئك ، الذين كفروا بكل ذلك « يشوا من رحمى ، أى : انقطع أملهم في رحمتي إياهم انقطاعاً تاماً وعبر - سبحانه - بالماضى لدلالة عليه التام على تحقق وقوع هذا اليأس ، وفقدان الأمل عند هؤلاء الكافرين وقت أن يقفوا بين يديه للحساب ، بسبب كفرهم وسوء أعمالهم .

وأغاف — عز وجل — الرحمة إليه ، للإشارة إلى سبقها الغضبه، وأنها تشمل عباد الله المؤمنين .

• وأوامك ، أى : الذين كفروا بآيات الله وبلغائه . لهم عذاب أليم ، لا يعلم مقدار شدته وفضاعته إلا هو — سبحانه — .

• • •

ثم قص — سبحانه — بعد ذلك ما قاله قوم إبراهيم له ، ثم ارد به عليهم . فقال — تعالى — :

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّودَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَتَأْمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي فَإِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾

فقوله - تعالى - : • فما كان جواب قومه ... ، بيان لما رد به الظالمون

على نبيهم إبراهيم - عليه السلام - بعد أن وعظهم ونصحهم وأقام لهم
أوضح الأدلة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

ولفظ « جواب » بالنصب ، خبر كان ، واسمها قوله : « إلا أن قالوا
اقتلوه أو حرقوه » .

والمراد بقتله : إزهاق روحه بسيف ونحوه ، لنظهر المقابلة بين
الإحراق والقتل .

وجاء هنا الترديد بين الأمرين ، للاشعار بأن من قومه من أشار بقتله ،
ومنهم من أشار بإحراقه ، ثم اتفقوا جميعا على الإحراق ، كما جاء في قوله
- تعالى - « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين » .

والمعنى : فإكان جواب قوم إبراهيم له ، بعد أن نصحهم وظهرت حجته
عليهم . إلا أن قالوا فيما بينهم ، اقتلوه بالسيف ، أو احرقوه بالنار ،
لتستريحوا منه ، وتريحوا آلهتكم من عدوانه عليها ، وتحطيمه لها ...

وقولهم هذا الذي حكاه القرآن عنهم ، يدل على إسرافهم في الظلم والعنفوان
والجهالة ...

والغناء في قوله - تعالى - « فأنجاه الله من النار » فصيحة . أى : فانفقوا
على إحراقه بالنار ، وألقوه فيها بعد اشتعالها ، فأنجاه الله - تعالى - منها ،
بأن جعلها بردا وسلاما عليه .

« إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » أى : إن في ذلك الذي فعلناه بقدرتنا
مع إبراهيم - عليه السلام - حيث أخرجناه ساجدا من النار ، لآيات بينات
على وحدانيتنا وقدرتنا ، لقوم يؤمنون ، بأن الله - تعالى - هو رب العالمين ،
وأنه له الخلق والأمر .

وجمع - سبحانه - الآيات ، لأن في نجاة إبراهيم ، دلالات متعددة على قدرة الله - تعالى - لادلالة واحدة ، فنجاته من النار وتحويلها عليه إلى برد وسلام آية وعجز المشركين جميعاً عن أن يلحقوا به ضرراً آية ثانية ، وإصرارهم على كفرهم مع ما شاهدوه ، آية ثالثة على أن القلوب الجاحدة تبقى على جحودها حتى مع وجود المعجزات الدالة على صدق من جاء بها من عند الله - تعالى - .

ولذا خص - سبحانه - هذه الآيات ، لأنهم هم وحدهم المنتفعون بها .
ثم حكى - سبحانه - ما قاله إبراهيم - عليه السلام - لقومه بعد أن نجاه الله من ضرورهم فقال : « وقال إنما اتخفتهم من دون الله آوئانا ، مودة بينكم في الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضاً . ولفظ « مودة » وردت فيه قراءات فقد قرأه بعض القراء السبعة بالنصب ، على أنه مفعول به لقوله : « اتخذتم » أو على أنه مفعول لأجله ، فيكون المعنى .

وقال إبراهيم لقومه : يا قوم إنكم لم تتخذوا هذه الآوان معبودات إنكم عن حقيقة وإقتناع بأحقية عبادتها ، وإنما اتخذتموها معبودات من أجل المودة فيما بينكم ، ومن أجل أن يحامل بعضكم بعضاً في عبادتها ، على حساب الحق والهدى .

وهذا شأنكم في الدنيا ، أما في يوم القيامة ، فهذه المودة ستزول لأنها مودة باطلة ، وسيكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضاً ، حيث يتبرأ القادة من الاتباع ، والاتباع من القادة « وماواكم النار ، أى : ومنزلكم الذى تأوون إليه أنتم وأصنامكم يوم القيامة للنار » وما لكم من ناصرين ،
(م ٣ - العنكبوت)

يخلصونكم من هذه النار ، أو يخففوا سعيها عنكم .

وبعض القراء السبعة قرأ لفظ « مودة » بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . أى : أن ما اتخذتموه من عبادة الأوثان ، هو مودة بينكم في الحياة الدنيا ، أما في الآخرة فسيكفر بعضكم ببعض ، وبلعن بعضكم بعضا .

والمقصود من الآية المكريمة ، بيان أن هؤلاء المشركين لم يتخذوا الأصنام آلهة ، وهم يعتقدون صحة ذلك اعتقادا جازما ، وإنما اتخذوها في الدنيا آلهة تارة على سبيل التوادف فيما بينهم ، وتارة على سبيل التقليد والمسيرة لغيرهم . . . أما في الآخرة فستحول تلك المودات والمسائرات والتقاليد إلى عداوات ومقاطعات وملاعنات .

وقوله — تعالى — : « فآمن له لوط .. » بيان للثمرة الطيبة التي ترتب على دعوة إبراهيم لقومه ، إلى عبادة الله — تعالى — وحده ، بعد أن مكث فيهم مدة لا يعلمها إلا الله ، وبعد أن أقام لهم ألوانا من الأدلة على أن ما جاءهم به هو الحق ، وما هم عليه هو الباطل .

والتمبير بقوله — سبحانه — : « فآمن له لوط » يشعر بأن لوطا - عليه السلام - وحده ، هو الذى لبى دعوة إبراهيم ، وصدقه فى كل ما أخبر به .

ولوط — عليه السلام — يرى كثير من العلماء أنه ابن أخى إبراهيم — عليه السلام — فهو لوط بن هاران ابن آذر .

والضمير فى قوله — سبحانه — : « وقال لى مهاجر إلى ربى .. » يرى بعضهم أنه يعود إلى لوط ، لأنه أقرب مذكور .

أى : فآمن لوط لإبراهيم وصدقه فى كل ما جاء به ، وقال : لى مهاجر إلى الجهة التى أمرنى ربى بالهجرة إليها ، لابلغ دعوته ، فهو لم يهاجر من

أجل منفعة دنيوية ، وإنما هاجر من أجل تبليغ أمر ربه ، وإعلاء كلمته .
ويرى آخرون أن الضمير يعود إلى إبراهيم - عليه السلام - ، لأن الحديث عنه .

قال الألوسي مملوخصه : « وقال إني مهاجر إلى ربي ، أي : وقال إبراهيم إني مهاجر ، أي : من قومي ، إلى ربي . أي إلى الجهة التي أمرني بأن أهاجر إليها ، أنه - عز وجل - وهو العزيز ، الغالب على أمره . . . » « الحكيم » الذي لا يفعل فعلاً إلا وفيه حكمة ومصلحة .

وقيل : للضمير في « إني » لوط - عليه السلام - ، وليس بشيء . لما يلزم عليه من التفسير ، (١) .

ثم بين - سبحانه - بعض النعم التي أنعم بها على نبيه إبراهيم ، بعد أن هاجر من العراق إلى بلاد الشام لتبليغ رسالة ربه إلى الناس فقال : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب ، وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب . . . »
أي : ووهبنا لإبراهيم - بعد أن هاجر ومعه روجه وسارة ، وابن أخيه لوط - ووهبنا له ابنه إسحاق ، ووهبنا لإسحاق يعقوب ، وجعلنا بفضلنا ورحمتنا ، في ذرية إبراهيم النبوة ، إذ من نسله جميع الأنبياء من بعده ، كما جعلنا في ذريته - أيضاً - الكتاب التي أنزلناها على الأنبياء من بعده ، كالطوراة ، والإنجيل ، والزيور ، والقرآن .

فالمراد بالكتاب هنا : الكتب السماوية التي أنزلها - سبحانه - على موسى وعيسى وداود ومحمد - صلوات الله عليهم - ، وهم جميعاً من نسل إبراهيم قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما بال إسماعيل لم يذكر ، وذكر إسحاق وعقبه ؟

قلت : قد دل عليه في قوله : « وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب » وكفى الدليل لشهرة أمره ، وهو قدره .

فإن قلت : ما المراد بالكتاب ؟ قلت : قصد به جنس الكتاب ، حتى دخل تحته ما نزل على ذريته من الكتب الأربعة ، التي هي : التوراة ، والزيور ، والإنجيل ، والقرآن ، (١) .

وقوله — سبحانه — : « وآتيناه أجره في الدنيا ، بيان لفعة أخرى أنعم بها — سبحانه — على نبيه إبراهيم — عليه السلام .

أي : وهبنا له الثرية الصالحة ، وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب السماوية ، وآتيناه أجره على أعماله الصالحة في الدنيا ، بأن رزقناه الزوجة للصالحة ، والذكر الحسن بعد وفاته .

ولأنه في الآخرة لمن الصالحين ، الذين سنعطهم أجول العطاء وأوفاه .

وهكذا اجمع الله — تعالى — بفضل له وإحسانه لنبيه إبراهيم ، خيرى الدنيا والآخرة ، جزاء إيمانه العميق ، وعمله الصالح ، ووفائه في تبليغ رسالة ربه .

• • •

ومناسبة الحديث عن قصة إبراهيم مع قومه ، جاء بعد ذلك الحديث عن جانب من قصة لوط مع قومه ، لوط — عليه السلام — الذي آمن بإبراهيم وهاجر معه إلى بلاد الشام . . . قال — تعالى — :

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَنَا تُؤْتُونَ
 الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّكُمْ لَنَا تُؤْتُونَ
 الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ
 قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّنَابِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾
 قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا
 إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا
 ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ
 وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَرَاهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا
 لُوطًا مَعَهُمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ
 وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُنْتَ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ
 هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَبَدَدَ رَمْلًا
 مِنْهَا آيَةٌ بَيِّنَةٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

وقوله - سبحانه - : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ . منصوب بالمطف

على إبراهيم في قوله - تعالى - : وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ . أو بفعل

أى : واذا ذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - نبينا لوطا - عليه السلام - وقت أن قال لقومه على سبيل الزجر والتوبيخ والإنكار لما هم عليه من فعل قبيح : وإني لكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، أى : إنكم لتفعلون الفعل البالغة أقصى درجات القبح والفحش ، والتي ما فعلها أحد قبلكم ، بل أنتم أول من ابتدعها ، وهى إتيان الف كور دون الافات .

قال عمر بن دينار : وما نزل ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط ، . وقال الوليد بن عبد الملك : لولا أن الله - تعالى - قد قص علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت أن ذكرا يملو ذكرا ، .

وجاء قوله - عليه السلام - مؤكدا بجملة من المؤكدات ، لتسجيل هذه الفاحشة عليهم بأقوى أسلوب ، وبأنهم لم يسبقهم أحد إلى ارتكابها .

وقوله - سبحانه - : وإني لكم لتأتون الرجال ، وتقطعون السبل وتأتون في ناديتكم المنكر . ، بيان لتلك الفاحشة التي كانوا يقرفونها . والاستفهام التانيب والتقريع .

والسبل : الطريق ، والنادى : اسم جنس للمكان الذى يجتمع فيه الناس لأمر من الأمور ، أى : إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء وتقطعون الطريق على المارة ، بأن تنهبوا أموالهم ، أو بأن تكرهوهم لإكراهها على ارتكاب الفاحشة معهم ، أو بأن تعتدوا عليهم بأى صورة من الصور وفضلا عن كل ذلك فإنكم ترتكبون المنكرات في مجالسكم الخاصة ، وفي نواديكم التي تتلاقون فيها .

فأنت ترى أن نبيهم - عليه السلام - وقد إوصفهم بأوصاف ، كل صفة أقبح من سابقتها ، والباعث لهم على ارتكاب تلك المنكرات ، هو هو انتكاس فطرتهم ، وفساد قلوبهم ، وهنود شهواتهم .

فإذا كان جوابهم على نبيهم - عليه السلام - : لقد كان جوابهم في غابة

تلتجئ والسفاهة ، وقد حكاه القرآن في قوله : « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اتقنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين » .

أى : فما كان جواب قوم لوط عليه ، إلا أن قالوا له على سبيل الاستخفاف بوعظه وزجره : اتقنا بالوط بعذاب الله الذى تنوعدنا به ، إن كنت صادقا . فى دعواك أنك رسول ، وفى دعواك أن عذابا سينزل علينا ، بسبب أفعالنا هذه التى ألفناها وأحببناها . . .

وهكذا نرى أن هؤلاء المجرمين ، قد قابلوا نصيح نبيهم تارة بالاستخفاف والاستهزاء كما هنا ، وتارة بالتهديد والوعيد ، كما فى قوله - تعالى - : « أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون » (١) .

ولذا لجأ لوط - عليه السلام - إلى ربه ، يلتمس منه النصرة والعون فقال : « رب انصرنى على القوم المفسدين » . أى : انصرنى بأن تنزل عذابك على هؤلاء القوم المفسدين ، الذين مردوا على ارتكاب فواحش ، لم يصبهم فيها أحد من العالمين .

وأجاب الله - تعالى - دعاء نبيه لوط - عليه السلام - ، وأرسل - سبحانه - ملائكته لنبيه إبراهيم ليبشروه بأبنة إسحاق ، قبل أن ينفقوا هذاب الله فى قوم لوط ، قال - تعالى - :

« ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية . » أى : « وحين جاء الملائكة إلى إبراهيم ليبشروه بأبنة إسحاق : قالوا له : يا إبراهيم ، إنا مرسلون من ربك لإهلاك أهل هذه القرية وهى قرية سدوم التى يسكنها قوم لوط ، والسبب فى ذلك ، إن أهاما كانوا ظالمين » ، حيث

أتوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد ، وقطعوا الطريق على الناس ، ولقد فرجوا في مجالسهم المنكرات .

وهنا قال لهم إبراهيم - عليه السلام - بحقيقته وشفقته : « إن فيها لوطا ، أى : إن في هذه القرية التى جئتم لإهلاكها لوطا ، وهو نبي من أنبياء الله الصالحين فكيف تهلكونها وهو معهم فيها ؟ » وهنا رد عليه الملائكة بما يزيل خشبته فقالوا : « نحن أعلم بمن فيها ، من الأخيار ومن الأشرار ، ومن المؤمنين ومن الكافرين . »

« لننجيه وأهله إلا امرأته كثفت من الغابرين ، أى : اطمئن يا إبراهيم فإن الله - تعالى - قد أمرنا أن ننجى لوطا ، وأن ننجى معه من الهلاك أهله المؤمنين ، إلا امرأته فستبقى مع الممساكين ، لأنها منهم ، بسبب خيانتها للوط - عليه السلام - ، حيث كانت تقرر جرائم قومها ، ولا تعمل على إزالتها وإنكارها ، كما هو شأن الزوجات الصالحات . »

والغابر : الباقي . يقال : غبر الشيء يغبر غبورا ، أى : بقى : وقد يستعمل فيما مضى - أيضاً - فيكون من الأضداد . ومنه قولهم : هذا الشيء - حدث في الزمن الغابر . أى : الماضى .

ثم بين - سبحانه - حال لوط - عليه السلام - بعد أن وصل إليه للملائكة لينفذوا قضاء الله - تعالى - في قومه . فقال - عز وجل - : « ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم ، وضاق بهم ذرعا . . . »

و « أن » هنا مزيدة لتأكيد المعنى . . . ومعنى بهم ، أى : احتزته المساءة - والأحزان بسبب نجيتهم ، لخوفه من اعتداء قومه ، عليهم .

قال القرطبي : والذرع مصدر ذرع . وأصله أن يفرع البعير بيديه في

سيره ذرها، على قدر سعة خطوه، فإذا جعل عليه أكثر من طاقته ضاق عن ذلك، وضعف ومد عنقه، فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع . . . وإنما ضاق ذرعه بهم، لما رأى من جماعهم، وما يملئه من فسوق قومه . . . (١).

أى : . . . حين جاءت الملائكة إلى لوط . . . عليه السلام . . . ورآهم، ساء وأحزنه مجيئهم، لأنه كان لا يعرفهم، ويعرف أن قومه قوم سوء، فخشى أن يعتدى قومه عليهم، وهو لا يستطيع الدفاع عن هؤلاء الضيوف .

والتمبير بقوله . . . سبحانه . . . وضاق بهم ذرها، : . . . تعبير بليغ، وتصوير بديع لنفاد حيلته، واغتهام نفسه . . . وعجزه عن وجود مخرج المذكور الذى حل به . . . وذرها، تمثيل بحول عن الفاعل . . . أى : ضاق بأمرهم ذرعه .

ولاحظ الملائكة . . . عليهم السلام . . . على لوط قلقه وخوفه، فقالوا له على سبيل التبشير وإدخال الطمأنينة على نفسه، يا لوط : . . . لا تخف ولا تحزن، أى لا تخف علينا من قومك، ولا تحزن لمجيئنا إليك بتلك الصورة المفاجئة .

ثم أنفصحوأله عن مهمتهم فقالوا : . . . إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كالت من الغارين . . .

أى : إنا منجوك وأهلك المؤمنين من العذاب الذى سئله بقومك، إلا امرأتك فسيذكرها العذاب مع قومك، وستهلك مع الهالكين بسبب تواطئها معهم، ورضاها بأفعالهم القبيحة .

ثم أخبروه بالكيفية التى سيزل بها العذاب على قومه فقالوا : . . . إنا نمزلون على أهل هذه القرية رجلاً من السماء بما كانوا يفسقون . . .

والرجز : العقاب الذى يزجج المذنب به ويجعله فى حالة اضطراب وهلع .
يقال : ارتجز فلان ، إذا اضطرب وانزعج .

أى : إنا منزلون بأمر الله - تعالى - وإرادته ، على أهل هذه القرية - وهى قرية سدوم التى كان يسكنها قوم لوط - درجزا من السماء ، أى : عذابا شديدا كأذا من السماء ، بحيث لا يمكن أن يكون دفعه أو النجاة منه ، بسبب فسوقهم عن أمر ربهم ، وخروجهم عن طاعته .

ثم بين - سبحانه - أن حكته قد اقتضت ، أن يجعل آثار هؤلاء الظالمين باقية بعدهم ، لتكون عبرة وعظة لغيرهم فقال : « ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون » .

أى : ولقد تركنا من هذه القرية بعد تدميرها ، علامة بينة ، وآية واضحة . تدل على هلاك أهلها ، حتى تكون عبرة لقوم يستعملون عقولهم فى التدبر والتفكر .

قال ابن كثير : وذلك أن جبريل - عليه السلام - اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك (وماهى من الظالمين ببيعيد ، وجعل مكانها . بحيرة خبيثة منقنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التتاد ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المماد ، ولهذا قال : « ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون » . كما قال : ولا نسكم لنمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون » (١) .

• • •

ثم ساق - سبحانه - جانباً من قصة شعيب وهود وصالح - عليهم السلام - مع أقوامهم ، وكيف أن هؤلاء الأقوام قد كانت عاقبتهم خسراً ، بسبب تكذيبهم لأنبيائهم ، فقال - تعالى - :

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ

يُتَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْشَوْا فِي الْأَرْضِ

مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

جَحِيمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمْ

الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

وَقُرُونًا وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا

فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن

أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا

فِيهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

وقوله - سبحانه - : : وإلى مدين أخاهم شعيبا . . . معطوف على مقدر محذوف ، لدلالة ما قبله عليه . ومدين : اسم لقبيلة التي تنسب إلى مدين بن إبراهيم عليه السلام - وكانوا يسكنون في المنطقة التي تسمى معان بين حدود الحجاز والشام وقد أرسل الله - تعالى - إليهم هَمِيماً - عليه السلام - ليأمرهم بعبادة الله

— تعالى — وحده ، ولينهاهم عن الرذائل التي كانت منتشرة فيهم ، والتي من أبرزها التنظيف في المكيال والميزان .

والمعنى : وكما أرسلنا نوحا إلى قومه ، وإبراهيم إلى قومه ، أرسلنا إلى أهل مدين ، رسولنا شعبيا — عليه السلام — .

وقال يا قوم اعبدوا الله ، أى : فقال لهم ناصحا ومرشداً ، الكلمة التي قالها كل نبي لأمة : يا قوم اعبدوا الله — تعالى — وحده ، واتركوا ما أنتم عليه من شرك .

وقال لهم — أيضاً — : « وارجو اليوم الآخر ولا تعشوا في الأرض مفسدين أى : اعبدوا الله وحده ، وارجو النجاة من أهوال يوم القيامة ، بأن تصعدوا به بالإيمان والعمل الصالح ، ولا تعشوا في الأرض مفسدين فإن الإفساد في الأرض ليس من شأن العقلاء ، وإنما هو من شأن الجحلاء الجاحدين لنعم الله — تعالى — . » يقال : حتى فلان في الأرض يعشوا ويعشى — كقال وتعب — ، إذا ارتكب أشد أنواع الفساد فيها .

فأنت ترى أن شعبيا — عليه السلام — وهو خطيب الأنبياء — كما جاء في الحديث الشريف — ، قد أمر قومه بإخلاص العبادة لله ، وبالعامل الصالح الذي ينفعهم في أخراهم ، ونهاهم عن الإفساد في الأرض ، فإذا كان موقفهم منه ؟ كان موقفهم منه : للتكذيب والإعراض ، كما قال — سبحانه — : « فكذبوه ، أى : فيما أمرهم به ، وفيما نهاهم عنه . »

« فأخذتهم الرجفة ، أى : فأهلكهم الله — تعالى — بسبب تكذيبهم لنبيهم بالرجفة ، وهي الزلزلة الشديدة . يقال : رجفت الأرض ، إذا اضطربت اضطراباً شديداً . »

ولا تعارض هنا بين قوله — تعالى — : « فأخذتهم الرجفة » وبين قوله — سبحانه — في سورة هود : « فأخذتهم الصيحة ، لأنه يجوز أن الله — تعالى — جعل لإهلاكهم سببين : الأول : أن يجربوا — عليه السلام — صاحب بهم . »

صبيحة شديدة أذهلتهم ، ثم رجفت بهم الأرض فأهلكتهم ، وبعضهم قال إن الرجفة والصيحة بمعنى واحد .

وقوله — تعالى — : « فأصبحوا في دارهم جاثمين ، بيان لما آل إليه أمرهم بعد هلاكهم .

والمراد بدارهم : مساكنهم التي يسكنونها ، أو قريتهم التي يعيشون بها .
وقوله : « جاثمين ، من الجثوم ، وهو للناس والطيور بمنزلة البروك للإبل .
يقال : جثم الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم — من باب ضرب — ، إذا وقع على صدره ولزم مكانه فلم يبرحه .

أى : فأصبحوا في مساكنهم هامسدين ميتين لا تحس لهم حركة ، ولا تسمع لهم ركزا .

ثم أشار — سبحانه — بعد ذلك إلى مصارع عاد وثمود فقال : « وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فسدهم عن السبيل ، وكانوا مستبصرين ، .

وعاد : هم قوم هود — عليه السلام — ، وكانوا يسكنون بالاحقاف في جنوب الجزيرة العربية ، بالقرب من حضرموت .

وثمود : هم قوم صالح — عليه السلام — ، وكانت مساكنهم بشمال الجزيرة العربية ، وما زالت مساكنهم تعرف حتى الآن بقري صالح :
أى : وأهلكنا عادا وثمود بسبب كفرهم وعنادهم ، كما أهلكنا غيرهم ،
والحال أنه قد تبين لكم — يا أهل مكة — وظهر لكم بعض مساكنهم ، وأنتم تمررون عليهم في رحلتى الشتاء والصيف .

فقوله — سبحانه — : « وقد تبين لكم من مساكنهم ، المقصود منه غرس العبرة والعظة في نفوس مشركى مكة ، عن طريق المشاهدة لأنار المملكين ، فإن مما يحمل العقلاء على الاعتبار مشاهدة آثار التزيق والتدمير بعد القوة والتمكين .

«وذين لهم الشيطان أعمالهم، السيئة . بسبب وسوسته وتـويله» فصدّهم
عن السبيل ، الحق ، وعن الطريق المستقيم :

« وكانوا ، أى : عاداً وثمود ، مستبصرين ، أى : وكانت لهم عقول .
يستطيعون التمييز بها بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، ولكنهم لم يستعملوها
فما خلقت له ، وإنما استحبوا العمى على الهدى وآثروا الغى على الرشد ،
فأخذهم الله — تعالى — أخذ عزيز مقتدر .

وقوله - تعالى - : « مستبصرين ، من الاستبصار ، بمعنى التمكن من
تعقل الأمور ، وإدراك خيرها من شرها ، وحققها من باطلها .

ثم أشار - سبحانه - إلى ما حل بقارون وفرعون وهامان فقال : « وقارون
وفرعون وهامان ، أى : وأهلكنا - أيضاً - قارون ، وهو الذى كان من
قوم موسى فبنى عليهم ، كما أهلكنا فرعون الذى قال لقومه : « أنا ربكم الأعلى ،
وهامان الذى كان وزيراً لفرعون وعونا له فى الكفر والظلم والظفیان .

قال الألوسى : وتقديم قارون ، لأن المقصود تسليية النبى (ﷺ)
فيما لقي من قومه لخصدهم له ، وقارون كان من قوم موسى - عليه
السلام - وقد لقي منه ، لقي ، أولاً حال قارون أدفق بحال عاد وثمود ،
فإنه كان من أبصر الناس وأعلمهم بالتوراة ، ولكنه لم يفده الاستبصار
شيئاً ، كما لم يفدهم كونهم مستبصرين شيئاً . (١) .

ثم بين - سبحانه - ما جاءهم به موسى - عليه السلام - ووقفهم منه فقال :
« ولقد جاءهم موسى بالبينات ، أى : جاءهم جميعاً بالمعجزات الواضحات الدالة
على صدقه .

« فاستكبروا فى الأرض ، أى : فاستكبر قارون وفرعون وهامان فى
الأرض ، وأبوا أن يؤمنوا بموسى ، بل وصفوه بالسحر وبما هو برىء منه

« وما كانوا سابقين ، أى : وما كانوا بسبب استكبارهم وغرورهم هذا ، هاربين أو ناجين من قضائنا فيهم ، ومن إهلاكنا لهم .

فقوله : « سابقين ، من السبق ، بمعنى التقدم على الغير ، يقال فلان سبق طالبيه ، إذا تقدم عليه دون أن يستطيع هذا الطالب إدراكه .

والمراد أن قارون وفرعون وهامان ، لم يستطيعوا - رغم قوتهم وغناهم - أن يفلتوا من عقابنا ، بل أدركهم عذابنا إدراكاً تاماً فأبادهم وقضى عليهم . ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء المكذبين ، ببيان سنة من سنته التى لا تتخلف ، فقال : « فكلأ أخذنا بذنبه »

أى : فكلأ من هؤلاء المذكورين قوم نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح ، وكفارون وفرعون وهامان وأمثالهم : كلأ من هؤلاء الظالمين أخذناه وأهلكناه بسبب ذنوبه التى أصر عليها دون أن يرجع عنها . ففهم من أرسلنا عليه حاصباً ، أى : فن هؤلاء الكافرين من أهل الكناه ، بأن أرسلنا عليه ريحاً شديدة رمته بالحصى فأهلكته .

قال القرطبي : قوله : « ففهم من أرسلنا عليه حاصباً ، يعنى قوم لوط ، والحاصب ريح يأتى بالحصباء ، وهى الحصى الصغار ، وتستعمل فى كل عذاب » (١) . ومنهم من أخذته الصيحة ، كما حدث لقوم صالح وقوم شعيب - عليهما السلام - .

« ومنهم من خسفنا به الأرض ، وهو قارون ،

« ومنهم من أغرقنا ، كما فعلنا مع قوم نوح ومع فرعون وقومه ، .

« وما كان الله ليظلمهم ، أى : وما كان الله - تعالى - مريداً لظلمهم ، لأنه - سبحانه - انتفض رحمته وحكمته ، أن لا يعذب أحداً بدون ذنب ارتكبه .

«وإلّا كن كانوا أنفسهم بظلمون ، أى : ما ظلم الله - تعالى - هؤلاء المهلكين ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، وعرضوها للدمار ، بسبب إصرارهم على كفرهم . ولاتباعهم للهوى والفتيان . وبذلك نرى الآيات قد قصت على الناس مصارع الغابرين ، الذين كذبوا للرسل ، وحاربوا دعوة الحق ، ليكون في هذا القصص عبرة للمعتبرين ، وذكرى للمتذكرين .

ثم ضرب الله مثلا ، لمن يتخذ آلهة من دونه ، وتوعد من يفعل ذلك بأشد أنواع العذاب ، فقال - تعالى - :

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ
كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا
يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتُلُّ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ
أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا
وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾

والمثل والمثل : النظير والعبية ، ثم أطلق المثل على القول السائر المعروف ، لمائة مضر به - وهو الذي يضرب فيه - ، لمورده - وهو الذي ورد فيه أوك - ، ولا يكون إلا فيما فيه غرابة ، ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة ، إذا كان لها شأن عجيب ، وفيها غرابة . وعلى هذا المعنى يحمل المثل هنا .

وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى ، وتقريب الشيء المعقول من الشيء المحسوس ، وعرض الغائب في صورة الحاضر ، فيكون المعنى الذي ضرب له المثل ، أوقع في القلوب ، وأثبت في النفوس .

والعنكبوت : دويبة معروفة ، تنسج لنفسها في الهواء بيتا رقيقا ضعيفا ، لا يغنى عنها شيئا . وتطلق هذه الكلمة على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، والغالب في استعمالها التأنيث ، والواو والثاء زائدتان ، كما في لفظ طاغوت .

والمعنى : حال هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله - تعالى - أصناما يعبدونها ، ويرجون نفعها وشفاعتها . . كحال العنكبوت في اتخذها بيتا ضعيفا مهلهلا ، لا ينفعها لا في الحر ولا في البر ، ولا يدفع عنها شيئا من الأذى .

فالمقصود من المثل تجهيل المشركين وتقريعهم ، حيث عبدوا من دون الله - تعالى - آلهة ، هي في ضعفها ووهنها تشبه بيت العنكبوت ، وأنهم لو كانوا من ذوي العلم لما عبدوا تلك الآلهة .

قال صاحب الكشاف : الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلا ومعتمدا في دينهم وتولوه من دون الله ، بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوة . وهو نسج العنكبوت ، ألا ترى إلى مقطع التشبيه ، وهو قوله : « وإن أوهن العبيوت لبيت العنكبوت » . (م ٤ - العنكبوت)

فإن قلت : ما معنى قوله : لو كانوا يعلمون ، وكل أحد يعلم ومن بيت العنكبوت ؟

قلت : معناه ، لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم ، وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن . (١) .

وقال الألوسي : قوله : لو كانوا يعلمون ، أى : لو كانوا يعلمون شيئا من الأشياء ، نعدوا أن هذا مثلهم ، أو أن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن . و لو ، شرطية ، وجوابها محذوف ، وجوز بعضهم كونها للتمنى فلا جواب لها ، وهو غير ظاهر ، (٢) .

ثم بين - سبحانه - أن علمه شامل لكل شيء ، وأنه سبحانه على هؤلاء المشركين بما يستحقونه من عقاب فقال : إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء ، وهو العزيز الحكيم .

و ما ، موصولة ، وهى مفعول يعلم ، والمعائد محذوف ، و من شيء ، بيان لما . أى . إن الله - تعالى - يعلم علما تاما الذى يعبد هؤلاء المشركون من دونه ، سواء أكان ما يعبدونه من الجن أم من الإنس أم من المهادات ، أم من غير ذلك ، و هو ، سبحانه ، العزيز ، أى : الغالب على كل شيء ، الحكيم ، فى أقواله وأفعاله .

و تلك الأمثال ، التى سقناها فى كتابنا للعزيز ، والتى هى فيها المثل السابق ، نضربها للناس ، على سبيل الارشاد والتنبيه والتوضيح .
و ما يعقلها إلا العالمون ، أى : وما يعقل هذه الأمثال ، ويفهم صحتها وحسنها وفائدتها ، إلا الراسخون فى العلم ، المتدبرون فى خلق الله - تعالى - ، الفاهمون لما يتلى عليهم .

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٥٤

(٢) تفسير الألوسي ج ٢٠ ص ١٦٢

ثم ذكر — سبحانه — ما يدل على عظيم قدرته ، وأمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) بالإكثار من تلاوة القرآن الكريم ، ومن الصلاة ، فقال — تعالى — : « خلق الله السموات والأرض بالحق » .

أي : خلق الله — تعالى — السموات والأرض بالحق الذى لا باطل معه .

وبالحكمة التى لا يشوبها عبث أو لهو ، حتى يكون هذا الخلق متفقا مع مصالح عبادنا ومنافعهم .

ومن مظاهر ذلك ، أنك لا ترى — أيها العاقل — فى خلق الرحمن من تفاوت أو تصادم ، أو اضطراب .

واسم الإشارة فى قوله — تعالى — : « إن فى ذلك لآية للمؤمنين » يعود إلى خلق السموات والأرض ، وما اشتملتا عليه من بدائع وعجائب .

أي : إن فى ذلك اللهى خلقناه بقدرتنا ، من سماوات مرتفعة بغير عمد ، ومن أرض مفروشة بنظام بديع ، ومن عجائب لا يحصىها العد فى هذا الكون إن فى كل ذلك لآية بيّنة ، وعلامة واضحة ، على قدرة الله — عز وجل — .

وخص المؤمنين بالذكر ، لأنهم هم المتدبرون فى هذه الآيات والدالّون وهم المنتفعون بها فى التعرف على وحدانية الله وقدرته ، وعلى حسن عبادته وطاعته .

والمفهود بالتلاوة فى قوله — تعالى — : « اتل ما أوحى إليك من الكتاب » : القراءة المصحوبة بضبط الالفاظ ، وبفهم المعانى ، والخطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) ويشمل كل من آمن به .

أي : اقرأ — أيها الرسول الكريم — ما أوحينا إليك من آيات هذا

القرآن قراءة تدبر واعتبار وانعاط ، ودوام على ذلك ، ومر أتباعك أن يقتدوا بك في المواظبة على هذه القراءة الصحيحة النافعة .

« وأقم الصلاة ، أى : وراظب على إقامة الصلاة في أوقاتها بمخدوع وإخلاص واطمئنان ، وعلى المؤمنين أن يقتدوا بك في ذلك .

وقوله : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، تعليل للأمر بالمحافظة على إقامة الصلاة بمخدوع وإخلاص .

أى : داوم — أيها الرسول الكريم — على إقامة الصلاة بالطريقة التي يحبها الله — تعالى — ، فإن من شأن الصلاة التي يؤديها المسلم في أوقاتها بمخدوع وإخلاص ، أن تمنى مؤديها عن ارتكاب الفحشاء — وهى كل ما قبح قوله وفعله — ، وعن المنكر — وهو كل ما تنكره الشرائع والمعقول السليمة — .

قال الجمل : « ومعنى نهيها عنهما ، أنها سبب الانتهاء عنهما ، لأنها مناجاة لله — تعالى — ، فلا بد أن تكون مع إقبال تام على طاعته وإعراض كلى عن معاصيه .

قال ابن مسعود : في الصلاة منتهى ومزدهر عن معاصي الله ، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ، ولم تنهه عن المنكر ، لم يزد من الله إلا بعدا .

وروى عن أنس — رضى الله عنه — أن فتى من الأنصار ، كان يصلى مع النبى (صلى الله عليه وسلم) ثم يأتى الفراخس فذكر للنبي (صلى الله عليه وسلم) فقال : إن صلاته ستهناه ، فلم يلبث أن تاب وحسن حاله ، (١) .

والخلاصة ، أن من شأن الصلاة المصحوبة بالإخلاص والخشوع وإتمام سنتها وآدابها ، أن تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فإن وجدت إنسانا يؤدى الصلاة ، ولكنه مع ذلك يرتكب بعض المعاصي ، فأقول لك : إن الذنب ليس ذنب الصلاة ، وإنما للذنب ذنب هذا المرتكب للمعاصي ، لأنه لم يؤد الصلاة أداء مصحوبا بالخشوع والإخلاص .

وإنما أداها دون أن يتأثر بها قلبه .. ولعلها تنهاه في يوم من الأيام ببركة مداومته عليها ، كما جاء في الحديث الشريف : « إن الصلاة سننهاه » .

وقوله - سبحانه - : « ولذكر الله أكبر ، أى : ولذكر الله - تعالى - بجميع أنواعه من تسميع وتحميد وتكبير وغير ذلك من ألوان العبادة ، والذكر ، أفضل وأكبر من كل شئ آخر ؛ لأن هذا الله كثرته - تعالى - في كل الأحوال ، دليل على صدق الإيمان ، وحسن الصلة بالله - تعالى - .

قال الألوسي ما ملخصه : قوله - تعالى - : « ولذكر الله أكبر » ، قال ابن عباس . وابن مسعود ، وابن عمر . . أى : ولذكر الله - تعالى - إياكم ، أكبر من ذكركم إياه - سبحانه - .

وروى عن جماعة من السلف أن المعنى : ولذكر العبد لله - تعالى - أكبر من سائر الإهمال .

أخرجه الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال : ما عمل ابن آدم عملا أنجى له من عذاب الله يوم القيامة ، من ذكر الله - تعالى - .

وقيل المراد بذكر الله للصلاة ، كما في قوله - تعالى - : « فاعلموا إلى ذكر الله ، أى : إلى الصلاة ، فيكون المعنى : والصلاة أكبر من سائر الطاعات وإنما عبر عنها به ، للإيذان بأن ما فيها من ذكر الله - تعالى -

هو العمدة في كونها مفضلة على الحسنات ، ناهية عن السيئات ، (١) .

ويبدو لنا أن المراد بذكر الله - تعالى - هنا ، ما يشمل كل قول طيب وكل فعل صالح ، يأتيه المسلم بإخلاص وخشوع ، وعلى رأس هذه الأقوال والأفعال : التسبيح والتحميد والتكبير والتلهيل ، والصلاة وما اشتملت عليه من أقوال وأفعال . .

وأن المسلم متى أكثر من ذكر الله - تعالى - كان ثوابه - سبحانه - له ، وثناؤه عليه ، أكبر وأعظم من كل قول ومن كل فعل .

وقوله - سبحانه - : « والله يعلم ما تصنعون » ، تذييل قصد به الترغيب في إخلاص العبادة لله ، والتحذير من الرياء فيها .

أي : داوموا - أيها المؤمنون - على تلاوة القرآن الكريم ، بتدبر واعتبار ، وأقيموا الصلاة في أوقاتها بخشوع وخضوع ، وأكثروا من ذكر الله - تعالى - في كل أحوالكم ، فإن الله - تعالى - يعلم ما تفعلونه وما تصنعونه من خير أو شر ، وصيغاري - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ، ويهزأ الذين أحسنوا بالحسن . .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله والمؤمنين ، أن يجادلوا أهل الكتاب بالتي هي أحسن ، ماداموا لم يرتكبوا ظلماً ،

والمجادلة : المخاصمة . يقال جادل فلان فلانا إذا خاصمه ، وحرص كل واحد منهما على أن يغلب صاحبه بقوة حجته .

أى : ولا تجادلوا - أيها المؤمنون - غيركم من أهل الكتاب ، وهم لليهود والنصارى ، إلا بالطريقة التى هى أحسن ، بأن ترشدوهم إلى طريق الحق بأسلوب لين كريم ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن . . . (١)** .

فقال تعالى : **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن . . .** ثم أقام - سبحانه - الأدلة على أن هذا القرآن من عنده وحده ، فقال :

وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ^ط وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ^ج وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا^ط وَمَا كُنْتَ تُتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ^ط مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ^ط بِيَمِينِكَ إِذْ أَلَّا رَتَابَ الْمُبْطِلُونَ^{٤٧} بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ^ط وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ^{٤٨} وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ^ط قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ^{٤٩} أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ^ط إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ^{٥٠}

(٥) أول الجزء الحادى والعشرين .

(١) سورة النحل الآية ١٢٥

وقوله : «إلا الذين ظلموا منهم ، استغناء من الذين يجادلون بالتي هي أحسن .
 أي : فافهم وأرشدكم إلى الحق بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم
 بأن أساءوا إليكم ، ولم يستعملوا الأدب في جدالهم ، فقابلوهم بما يليق
 بحالهم من الإغلاظ والتأديب .

وعلى هذا التفسير يكون المقصود بالآية السكينة . دعوة المؤمنين إلى
 استعمال الطريقة الحسنی في مجادلتهم لأهل الكتاب عموماً ، ماعدا الظالمين منهم
 فعلى المؤمنين أن يعاملوهم بالأسلوب المناسب لردعهم وزجرهم وتأديبهم .
 وقيل : المراد بأهل الكتاب هنا : المؤمنون منهم ، والمراد بالذين ظلموا :
 من بقى على الكفر منهم .

فيكون المعنى : ولا تجادلوا - أيها المؤمنون - من آمن من أهل الكتاب
 إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين بقوا على كفرهم فعاملوهم بما يليق بحالهم
 من التأديب والإغلاظ عليهم .

ويبدو لنا أن التفسير الأول هو الأرجح والأظهر ، لأن الآية مسوقة
 لتعليم المؤمنين كيف يجادلون من بقى على دينه من أهل الكتاب ، ومادام الأمر
 كذلك فليس المسلمون في حاجة إلى إرشادهم إلى كيفية مجادلته ، ولأن قوله
 - تعالى - بعد ذلك : «وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم . . .»
 يرجح أن المراد بأهل الكتاب هنا من بقى على دينه منهم .

أي : جادلوهم بالطريقة الحسنی ماداموا لم يظلموكم ، وقولوا لهم على
 سبيل التعليم والإرشاد : آمنا بالذي أنزل إلينا ، وهو القرآن ، وآمنا بالذي
 أنزل إليكم من التوراة والإنجيل .

قال الشوكاني : أي آمنا بأنهما منزلان من عند الله ، وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام
 الشريعة الإسلامية ، والبعثة المحمدية ولا يدخل في ذلك ما حرقوه وبدلوه (١) -

« وإلهنا وإلهكم واحد ، لا شريك له لاف ذاته ولا فى صفاته ونحن ، جميعا معاشر المؤمنين « له مسلمون ، أى : مطيعون وطاعون له وحده ، ولا نتخذ أربابا من دونه — عز وجل — .

قال القرطبى مامناخصه : اختلاف العلماء فى قوله - تعالى - : « ولا تجادلوا أهل الكتاب . . . » فقال مجاهد : هى محكمة ، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن ، على معنى الدعاء لهم إلى الله - عز وجل - ، والتنبية على حجه وآياته . . . وقوله : « إلا الذين ظلموا منهم ، أى ظلموكم . . . » وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال وهى قوله : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله . . . » .

وقول مجاهد : حسن ، لأن أحكام الله - عز وجل - لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر ، أو حجة من معقول . . . (١) .

ثم بين - سبحانه - موقف الناس من هذا الكتاب الذى أنزله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب ، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به . . . » .

والكاف بمعنى مثل . واسم الإشارة يعود إلى المصدر المفهوم من أنزلنا أى : ومثل ذلك الانزال المعجز البديع ، أنزلنا إليك الكتاب - أى الرسول الكريم - ليكون هداية للناس ، فالذين آتيناهم الكتاب الشامل للتوراة والإنجيل وعقلوه وفتحوا قلوبهم للحق ، يؤمنون بهذا الكتاب الذى نزل هايك ، وهو القرآن فالمراد بالذين أوتوا الكتاب : المؤمنون منهم كعبد الله بن سلام وأمثاله . والمراد بالكتاب جنسه . والضمير - به - يعود إلى القرآن الكريم الذى أنزله الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم - وخسر هؤلاء المؤمنون منهم بإيتاء الكتاب ، على سبيل المدح لهم لأنهم انتفعوا بما أوتوه من علم عملوا بمقتضاه .

أما غيرهم ممن بقى على كفره ، فلكونه لم ينتفع بما فى الكتاب من هدايات ، فكأنه لم يره أصلا .

وقوله : « ومن هؤلاء من يؤمن به ، أى : ومن هؤلاء العرب الذين أرسلناهم إليهم — أيها الرسول الكريم — من يؤمن بهذا القرآن الذى أرسلناه إليك . » ومن ، التبعيض ؛ لأنهم لم يؤمنوا جميعا ، وإنما آمن منهم من هداه الله — تعالى — إلى الصراط المستقيم .

« وما يحمد بآياتنا ، الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدقك فيما تبلغه عنا ، إلا الكافرون ، أى : إلا المورغلون فى الكفر ، المصرون عليه بإصرار تاما . »

والبحرود : إنكار الحق مع معرفة أنه حق .
وعبر عن الكتاب بالآيات ، للإشعار بأنها فى غاية الظهور والدلالة على كونها من عند الله — تعالى — ، وأنه ما يكذب بها إلا من غطى الحق بالباطل عن تعمده وإصرار .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن من الناس من قابل هذا القرآن بالتصديق والإذعان ، ومنهم من قابله بالبحرود والنكران .

ثم ساق — سبحانه — أبلغ الأدلة وأوضحها على أن هذا القرآن من عنده — تعالى — ، فقال : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه يمينك ، إذا لا ارتاب المبطلون ، . »

أى : أنت — أيها الرسول الكريم — ما كنت فى يوم من الأيام قبل أن تنزل عليك هذا القرآن — تاليا لكتاب من الكتب ، ولا هارفا للكتابة ، ولو كنت ممن يعرف القراءة والكتابة ، لارتاب المبطلون فى شأنك ، ولقالوا : إنك نقلت هذا القرآن بخطك من كتب السابقين .

« ومن ، فى قوله ، من كتاب ، لتأكيد نفى كونه (مكتوبا) قارنا لى كتاب من الكتب قبل نزول القرآن عليه . »

وقوله: «ولا تخطه بيمينك» لنا كيد نفى كونه (ﷺ) يعرف الكتابة أو الخط . قال الإمام ابن كثير : وهكذا صفته (ﷺ) في الكتب المتقدمة ، كما قال - تعالى - : «والذين يتبعون الرسول للنبي الأُمى ، الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ... ، وهكذا كان - صلوات الله وسلامه عليه - إلى يوم القيامة ، لا يحسن الكتابة ، ولا يخط سطرًا ولا حرفًا بيده ، بل كان كتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم ... » (١) .

والمراد بالمبطلين ، كل من شك في كونه - هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، سواء أكان من مشركى مكة أم من غيرهم .

وسمى - سبحانه - مبطلين ؛ لأن ارتياهم ظاهر بطلانه وبجانبته للحق ؛ لأن الرسول (ﷺ) قد لبث فيهم قبل النبوة أربعين سنة ، يعرفون حسبه ونسبه ، ويعلمون حق العلم أنه أى لا يعرف الكتابة والقراءة .

ثم بين - سبحانه - حقيقة هذا الكتاب المعجزة فقال : «بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ... » ، فـ

أى : هذا الكتاب ليس أساطير الأولين اكتتبها الرسول (ﷺ) كما زعم المبطلون - ، بل هو آيات بينات واضحات راسخات . في صدور المؤمنين به ، الذين حفظوه وتداولوه وعملوا بتوجيهاته وإرشاداته ، وعملوا بما فيه من حكم وأحكام وعقائد وآداب .

ووصف الله - تعالى - المؤمنين بهذا القرآن بالعلم على سبيل المدح لهم ، والإعلاء من شأنهم ، حيث استطاعوا عن طريق ما وهبهم - سبحانه - من علم نافع ، أن يوقنوا بأن هذا من عند الله ، ولو كان من عند غير الله ، لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

وقوله - سبحانه - : «وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون» ، تذييل المقصود به ذم الذين تجاوزوا كل حق وصدق في أحكامهم وتصرفاتهم . أى : وما يجحد بآياتنا مع وضوحها وسطوحها ، ويشكر كونها من عند الله

— تعالى ، إلا الظالمون المتجاوزون لكل ما هو حق ، ولكل ما هو صدق .
ثم قصت علينا السورة الكريمة بعد ذلك طرفاً من أقوال المشر كين الفاسدة

وأمرت الرسول (ﷺ) أن يرد عليهم بما يزهق باطلهم . كما قصص علينا لولاً من
ألوان جهالاتهم ، حيث استعجلوا العذاب الذي لا يستعجله عاقل ، فقال — تعالى — :
وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه . . .)

ومرادهم بالآيات في قوله — تعالى — : وقالوا لولا أنزل عليه آيات
من ربه ، الآيات الكونية ، كمصا موسى ، وناقة صالح ، ولولا حرف
تخصيض بمعنى هلا .

أى : وقال المبطلون للنبي (ﷺ) على سبيل التعمت والعناد ، هلا
جئتنا يا محمد بمعجزات حسية كالتى جاء بها بعض الأنبياء من قبلك ، لكى
نؤمن بك ونتبعك ؟

وقوله : د قلى إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ، إرشاد من
الله — تعالى — لنبيه (ﷺ) إلى ما يرد به عليهم .

أى : قل — أيها الرسول الكريم — فى ردك على هؤلاء الجاهلين ،
إنما الآيات التى تريدونها عند الله — تعالى — وحده ، ينزلها حسب
إرادته ، وحكمته ، أما أنا فإن وظيفتى الإتيان الواضح بسوء مصهر من
أعرض عن دعوتى ، وليس من وظيفتى أن أقترح على الله — تعالى — شيئاً .

وقوله — سبحانه — : د أرم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى
عليهم . . . كلام مستأنف من جهة — تعالى — لتوبيخهم على جهالاتهم
والاستفهام للإنكار والواو للعطف على مقدر .

والمعنى : أقالوا ما قالوا من باطل وجهل ، ولم يكفهم أنا أنزلنا عليك هذه

الكتاب الناطق بالحق ، يتلى على مسامعهم صباح مساء ، ويهديهم إلى ما فيه
سعادتهم ، لو تدبروه وآمنوا به ، وانبعوا أوامره ونواهيه ؟

والتميز بقوله - سبحانه - : « يتلى عليهم » ، يشير إلى أن هذه
التلاوة متجددة عليهم ، وغير منقطعة عنهم ، وكان في إمكانهم أن ينتفعوا
بها لو كانوا يعقلون .

ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريم بقوله : « إن في ذلك لرحمة وذكري
لقوم يؤمنون » .

أي : إن في ذلك الكتاب الذي أنزلناه عليك - أيها الرسول الكريم - ،
والذي تتلوه عليهم صباح مساء ، لرحمة عظيمة ، وذكري نافعة ، لقوم
يؤمنون بالحق ، ويفتحون عقولهم للرشد ، لا للتعنت والجحود والعناد .

ثم أرشده - سبحانه - إلى جواب آخر يرد به عليهم فقال :

قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيِّنَةً
 وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
 بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ اُولٰٓئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ
 بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا اَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً
 وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَاِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ
 بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ
 اَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوْقُوْا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ ﴿٥٥﴾ يٰۤعِبَادِی الَّذِیْنَ ءَامَنُوا
 اِنَّ اَرْضِیْ وَسِعَتْ فَاِتٰی فَاَعْبُدُوْنَ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذٰۤئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ
 اِلَيْنَا تُرْجَعُوْنَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِیْنَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ
 مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرٰی مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خٰلِدِیْنَ فِيْهَا نِعَمٌ اٰجُرُ
 الْعٰمِلِیْنَ ﴿٥٨﴾ الَّذِیْنَ صَبَرُوْا وَعَلٰی رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ ﴿٥٩﴾ وَكَآئِنَ مِنْ
 دَآۤئِبَةٍ لَا تَحِلُّ رِزْقَهَا اللّٰهُ يَرْزُقُهَا وَاِیَّاكُمْ ۗ وَهُوَ السَّمِیْعُ الْعَلِیْمُ ﴿٦٠﴾

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين : يكفيني كفاية
 تامة أن يكون الله - تعالى - وحده ، هو الشهيد بيني وبينكم على أن
 صادق فيما أبلغه عنه ، وعلى أن هذا القرآن من عنده

وهو - سبحانه - يعلم ما فى السموات والأرض ، علما لا يعزب عنه
 شئ ، وسيجازى بما أستحقه من ثواب ، وسيجازىكم بما تستحقونه من عقاب .
 « والذين آمنوا بالباطل ، وأعرضوا عن الحق » وكفروا بالله - تعالى -
 مع وضوح الأدلة على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة والطاعة .

الذين فعوا ذلك : « أولئك هم الخاسرون » خسارة ليس بعدها خسارة .
 حيث آثروا الغى على الرشد ، واستحبوا العمى على الهدى ، وسيكون أمرهم
 فرطا فى الدنيا والآخرة .

وقوله - عز وجل - : « ويستعجلونك بالعذاب . . » بيان للون آخر
 من ألوان انطماس بصيرة هؤلاء الكافرين ، ومن سماهاتهم وجها لاتهم .
 - أى : أن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بتكذيبك - أيها الرسول الكريم - بل
 أضافوا إلى ذلك ، التطاول عليك ، لسوء أدبهم ، وعدم فهمهم لوظيفتك .
 بدليل أنهم يطلبون منك أن تنزل عليهم العذاب بعجلة وبدون إبطاء ، على سبيل
 التحدى لك ، كما قالوا فى موطن آخر : « اللهم إن كان هذا هو الحق من
 عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعقاب أليم » .
 ثم يبين الله - تعالى - حكمته فى تأخير عقابه عنهم إلى حين فيقول :
 « ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب . . »

أى : يستعجلك المشركون يا محمد فى نزول العذاب بهم ، والحق أنه لولا
 أجل مسمى ، ووقت معين ، حددته الله - تعالى - فى علمه لنزول العذاب
 بهم ، لجاءهم العذاب فى الوقت الذى طلبوه ، بدون إبطاء أو تأخير .
 ومع ذلك فقل لهم - أيها الرسول الكريم - إن هذا العذاب آت لا ريب
 فيه فى الوقت الذى يهاؤه الله - تعالى - ، وإن هذا العذاب المدمر المهلك :
 « لياتينهم بغتة وهم لا يشعرون » .

أى : ليحلن عليهم فجأة وبدون مقدمات ، والحال أنهم لا يشعرون به ، بل
 يأتهم بغتة فيبتهتهم ، ويستأصل شأقتهم .

ثم كرر - سبحانه - أقوالهم على سبيل التعجيب من حالهم ، واهمية
 للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما لقيه منهم ، فقال : « يستعجلونك
 بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالسافرين » .

أى : يستعجلونك - أيها الرسول الكريم - بالعذاب ، الذى لا يطلبه
 أحد في ذهنه مثقال ذرة من عقل ، والحال أن ما استعجلوه سينزل بهم
 لا محالة ، وستحيط بهم جهنم من كل جانب .

ثم بين - سبحانه - كيفية إحاطة جهنم بهم فقال : « يوم يشام للعذاب .. »
 أى : ستحيط بهم جهنم من كل جانب ، يوم يحل بهم العذاب « من
 فوقهم ومن تحت أرجلهم » ، أى : من جميع جهاتهم .

« ويقول - سبحانه - لهم ، على سبيل التقريع والتأنيب « ذوقوا
 ما كنتم تعملون » ، أى : ذوقوا العذاب الممين الذى كنتم تستعجلونه في الدنيا
 والذى أحاط بكم من كل جانب بسبب أعمالكم القبيحة ، وأقوالكم الباطلة .

. . .

وبعد أن بين - سبحانه - سوء عاقبة المكذبين ، الذين استعجلوا العذاب
 لجهلهم وعنادهم ، أتبع ذلك بتوجيه نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بالثبات على
 الحق ، فقال - تعالى - يا عبادى الذين آمنوا : إن ارضى واسعة . . .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : « يا عبادى الذين آمنوا إن ارضى
 واسعة . . . » : هذا أمر من الله - تعالى - لعباده المؤمنين ، بالهجرة من
 البلد الذى لا يقدر فيه على الدين ، إلى ارض الله الواسعة ، حيث يمكن
 إقامة الدين ، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم . . .

روى الإمام أحمد عن أبى يحيى مولى الزبير بن العوام قال : قال رسول الله
 - ﷺ - : « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبحت خيرا فأقم » .

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها ، خرجوا مهاجرين إلى
 ارض الحبشة ، ليأمنوا على دينهم هناك . . ثم بعد ذلك ، هاجر الرسول

-- صلى الله عليه وسلم -- وأصحابه إلى المدينة المنورة . . . (١) .

وفى ندائهم بقوله : « يا عبادى ، وفى وصفهم بالإيمان ، تكريم وتشريف لهم ، حيث أضافهم -- سبحانه -- إلى ذاته ، ونعتهم بالنعت المحبوب إلى قلوبهم .

وقوله : « إن أرضى واسعة » تحريض لهم على الهجرة من الأرض التى لا يتمكنون فيها من إقامة شعائر دينهم ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : ليس هناك ما يجبركم على الإقامة فى تلك الأرض التى لا قدرة لكم فيها على إظهار دينكم ، بل اخرجوا منها فإن أرضى واسعة ، ومن خرج من أجل كلمة الله ، رزقه الله -- تعالى -- من حيث لا يحتسب .

ومن المفسرين الذين أجادوا فى شرح هذا المعنى ، صاحب الكشف - رحمه الله - فقد قال : ومعنى الآية : أن المؤمن إذا لم يتسمل له العبادة فى بلد هو فيه ، ولم يتمش له أمر دينه كما يجب ، فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلباً ، وأصح ديناً ، وأكثر عبادة . .

ولعمري إن البقاع تتفاوت فى ذلك التفاوت الكثير ، ولقد جربنا وجرب أولونا ، فلم نجد فيما درنا وداروا : أعوذ على قهر النفس ، وعصيان الشهوة ، وأجمع للقلب المتأفك ، وأضيق للهم المنتشر ، وأحبط على القناعة ، وأطرد الشيطان ، وأبعد عن الفتنة . . من سكنى حرم الله ، وجوار بيت الله ، فله الحمد على ما سهل من ذلك وقرب . . (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ٦٣ ص ٢٩٩ .

(٢) تفسير الكشف ٣٠ ص ٤٦١ . (م - العنكبوت)

والفاء في قوله - تعالى - « فإياي فاعبدون » بمعنى الشرط ، وإياي منصوب بفعل مضمر ، قد استغنى عنه بما بعده . أى : فاعبدوا إياهم فاعبدون .

والمعنى : إن ضاق بكم مكان ، فإياي فاعبدوا ، لأن أرضي واسعة ، وإن تضيق بكم .

ثم رغبهم بأسلوب آخر في الهجرة من الأرض الظالم أهلها ، بأن بين لهم بأن الموت سيدير بهم في كل مكان ؛ فقال - تعالى - : « كل نفس ذائقة الموت » ، ثم إلينا ترجعون .

أى : كل نفس سواء أكانت في وطنها الذي عاشت فيه أم في غيره ، ذائقة لمرارة الموت ، ومتجرعة لسكاسه ، ثم إلينا بعد ذلك ترجعون جميعا لنحاسبكم على أعمالكم .

ثم بين - سبحانه - ما أعد للمؤمنين الصادقين من جزاء طيب فقال : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لنبوتنهم من الجنة غرفا . . . »

أى : والذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات ، لننزلهم من الجنة غرفا عالية فخمة ، هذه الغرف من صفاتها أنها « تجري من تحتها الأنهار » ، زيادة في إكرام أصحابها ، فضلا عن ذلك فقد جعلناهم « خالدين فيها » خلودا أبديا .

والخصوص بالمدح في قوله : « نعم » أجر العاملين ، محذوف . أى : نعم أجر العاملين ، أجر هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وقوله : « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » صفة لهؤلاء العاملين .

أبى : من مناقبهم الجميلة أنهم يصبرون على طاعة الله ، وعلى كل ما يحسن منه الصبر ، وأنهم يفوضون أمورهم إلى خالقهم لا إلى غيره .

ثم رزقهم - سبحانه - في الهجرة لإعلاء كلمة الله بأسلوب ثالث ، حيث بين لهم أن هجرتهم إن تضيع شيئاً من رزقهم الذى كتبه الله لهم ، فقال - سبحانه - : « وكأين من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم » . روى أن بعض الذين أسلموا بمكة عندما أمرهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بالهجرة إلى المدينة قالوا : كيف نهاجر إلى بلدة ليس لنا فيها معيشة فنزلت هذه الآية .

وكلمة « كآين » . مركبة من كاف التثنية وأى الاستفهامية المنونة ، ثم هجر بمعنى جزأها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية الدالة على التكثير . ويكنى بها عن عددٍ مبهم فتفتقر إلى تمييز بعدها . وهى مبتدأ . و « من دابة » تمييز لها .

وجملة : « لا تحمل رزقها » صفة لها ، وجمله « الله يرزقها » هى الخبر .

والدابة : اسم لكل نفس تدب على وجه الأرض سواء أكانت من العقلاء أم من غير العقلاء .

أبى : وكثير من الدواب التى خلقها الله - تعالى - بقدرته ، لا تستطيع تحصيل رزقها ، ولا تعرف كيف توفره لنفسها ، اضعفها أو دجزها . . ومع هذا قاله - تعالى - برحمته وفضله يرزقها ولا يتركها تموت جوعاً ، وبرزقكم أتم - أيضاً - ، لأنه لا يوجد مخلوق - مهما اجتمع ودأب - يستطيع أن يخلق رزقه .

« وهو ، - سبحانه - السميع ، الكل شيء . العالم ، بما تسرون وما تعلمون .

وقدم - سبحانه - رزق الدابة التي لا تستطيع تحصيله ، على رزقهم فقال : « الله يرزقها وإياكم ، لينفي من قلوب الناس القلق على الرزق ، وليشعرهم بأن الأسباب ليست هي كل شيء ، فإن واهب الأسباب ، لا يترك أحدا بدون رزق ، ولإزالة ما قد يخطر في النفوس من أن الهجرة من أجل إهلاك كلمة الله قد تنقص الرزق . .

وهكذا يسوق - سبحانه - من المرغبات في الهجرة في سبيله ، ما يقنع النفوس ؛ ويهدئ القلوب ، ويجعل المؤمنين يقبلون على تلبية فدائه ، وهم آمنون مطمئنون على أرواحهم ، وعلى أرزاقهم ، وعلى حاضرهم ومستقبلهم فسبحان من هذا كلامه .

. . .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان ما عليه المشركون من تناقض في أفكارهم وفي تصوراتهم ، وبيان حال هذه الحياة الدنيا وبيان جانب من النعم التي أنعم بها على أهل مكة ، وبيان ما أهده للمجاهدين في سبيله من ثواب ، فقال - تعالى - :

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا
مَهْوٌ وَلَعِبٌ ۖ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى
الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ
أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى
عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ

الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

وقوله - سبحانه - : : ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ،
وسخر الشمس والقمر ، ليقولن الله . ، بيان لما كان عليه مشركو العرب
من اعتراف بأن المستقل بخلق هذا الكون هو الله - تعالى - .

أى : ولله سالت - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين ، من الذى أوجد هذه السموات وهذه الأرض ، ومن الذى ذل وسخر لمنفعتكم الشمس والقمر ، ليقولان بدون تردد : الله - تعالى - هو الذى فعل ذلك بقدرته .

وقوله - سبحانه - : د فأنى يؤفكون ، تعجب من تناقضهم فى أفعالهم ، ومن انحراف فى تفكيرهم ، ومن تركهم العمل بموجب ما تقتضيه أقوالهم .

أى : إذا كنتم معترفين بأن الله وحده هو الخالق للسموات والأرض والمسخر للشمس والقمر ، فلماذا أشركتم معه فى العبادة آلهة أخرى ؟ ولماذا تنصرفون عن الإقرار بوحدانيته - عز وجل - ؟

ثم بين - سبحانه - أن الأرزاق جميعها بيده ، يوسعها لمن يشاء ويضيقها على من يشاء . فقال : د الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له . . .

والضمير فى قوله : د له ، يعود على د من ، على حد قولك : عندي درهم ونصفه . أى : ونصف درهم آخر .

أى : الله - تعالى - وحده هو الذى يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسعها عليه من عباده ، وهو وحده الذى يهيق الرزق على من يشاء أن يضيقه عليه من عباده . - سبحانه - لا يسأل عما يفعل ، وأفعاله كلها خاضعة لمشيئته وحكمته ، وكل شيء عنده بمقدار .

ويجوز أن يكون المعنى : الله - تعالى - وحده هو الذى يقدره أن يوسع الرزق لمن يشاء من عباده تارة ، وأن يضيقه عليهم تارة أخرى ،

فعلى المعنى الأول : يكون البسط فى الرزق لأشخاص ؛ والتضييق على آخرين ، وعلى المعنى الثانى يكون البسط والتضييق للأشخاص أنفسهم ولكن فى أوقات مختلفة .

والله - تعالى - قادر على كل هذه الأحوال ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء .
 « إن الله بكل شيء عليم ، فيعلم ما فيه صلاح عباده وما فيه فسادهم ، ويعلم
 من يستحق أن يبسط له في رزقه ، ومن يستحق التضييق عليه في رزقه .

ثم أكد - سبحانه - للمرة الثانية اعتراف هؤلاء المفكرين بقدرته الله
 - تعالى - فقال : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء ، أى : ماء كثيراً
 و فاحياً به الأرض من بعد موتها ، أى : فيجعل الأرض بسبب نزول الماء
 عليها تصبح خضراء بالنبات بعد أن كانت جرداء قاحلة .

لئن سألتهم من فعل ذلك ، ليقولن الله ، هو الذى فعل ذلك .

« قل الحمد لله ، أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل الشناء على
 الله - تعالى - : الحمد لله الذى أظهر حجته ، جعلهم ينطقون بأنك على الحق
 المبين ، ويعترفون بأن إشراركهم إنما هو من باب العناد والجحود .

وقوله - سبحانه - : « بل أكثرهم لا يعقلون ، لإضراب عما هم عليه من
 إنحراف وتناقض ، إلى بيان حقيقة حالهم ، وتسليه للرسول - صلى الله
 عليه وسلم - عما يعتريه بسببهم من حزن .

أى : بل أكثرهم لا يعقلون شيئاً مما يجب أن يكون عليه العقلاء من
 فهم سليم للأمور ، ومن العمل بمقتضى ما تنطق به الألسنة .

وفى التعبير بأكثرهم ، إنصاف لقلة منهم عقلت الحق فاتبعته ، وآمنت به
 وصدقته ، ثم بين - سبحانه - هو أن هذه الحياة الدنيا ، بالنسبة للدار
 الآخرة فقال : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة هي
 الحيوان لو كانوا يعلمون . »

واللهو : الإغفال للإنسان بما لا يعنيه ولا يهمه . أو هو الاستمتاع
 بملذات الدنيا .

والعب : العبث . وهو فعل لا يقصد به مقصد صحيح .

أى : أن هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من حطام ، تشبه في سرعة إنقضائها وزوال متعتها ، الأشياء التى يلمسها الأطفال ، يجتمعون عليها وقتاً ، ثم ينفضون عنها .

أما الدار الآخرة ، فهى دار الحياة الدائمة الباقية ، التى لا يعقبها موت ، ولا يعقبها فناء ولا انقضاء .

وافظد الحيوان ، مصدر حى . سعى به ذو الحياة ، والمراد به هنا : نفس الحياة الحقة .

وقوله : « لو كانوا يعلمون ، أى : لو كانوا يعلمون حق العلم ، لما آثروا متع الدنيا الفانية على خيرات الآخرة الباقية .

ثم بين - سبحانه - حالهم عندما يحيط بهم البلاء فقال - تعالى - : « فإذا ركبوا الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ... » .

أى : أن من صفات هؤلاء الجاحدين ، أنهم إذا ركبوا السفن ، وجرى بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، ثم جاءتهم بعد ذلك ريح عاصف ، وظنوا أن الفرق قد اقترب منهم ، تضرعوا إلى الله - تعالى - مخلصين له العبادة والدعاء .

« فلما نجاهم إلى البر ، بفضل وكرمه ، وأنقذهم من الفرق المحققة » .
« إذا هم بشر كون ، مع الله - تعالى - غيره فى العبادة والطاعة .

وقد فعلوا ذلك : « ليكفرو بما آتيناهم ، من نعم ، وبما منحناهم من فضل ورحمة .

« وليتمتعوا ، بمنع هذه الحياة وزينتها إلى حين » فسوف يعلمون ، عما قريب عاقبة هذا الكفران لنعم الله ، وهذا التمتع ببيئة الحياة الدائمة دون أن يعملوا شيئا ينفعهم في آخرهم .

قال الألوسى : قوله : « ليكفروا بما آتيناكم وليتمتعوا » : الظاهر أن اللام فى الموضعين لام كي ، أى : يشركون ليكونوا كافرين بما آتيناكم من نعمة النجاة بسبب شركهم ، وليتمتعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام ، فالشرك سبب لهذا الكفران . وأدخلت لام كي على مسيبيه ؛ لجعله كالغرض لهم منه ، فهو لام العاقبة فى الحقيقة .

وقيل : اللام فيهما لام الأمر ، والأمر بالكفران والتمتع ، مجاز فى التخيلية والخفلاخ والتهديد ، كما تقول عند الغضب على من يخالفك : « اعمل ما شئت » (١) .

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة الحرم الآمن ، الذى يعيشون فى جواره مطمئنين ، فقال : « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم » .

أى : أجهل هؤلاء قيمة النعمة التى هم فيها ، ولم يدركوا ويشاهدوا أننا جعلنا بلادهم مكة حرما آمنا ، يأمنون فيه على أموالهم وأنفسهم وأعراضهم والحال أن الناس من حولهم يقتل بعضهم بعضا ، ويعتدى بعضهم على بعض بسرعة وشدة . وللتخطف : الأخذ بسرعة .

قال صاحب الكشاف : كانت العرب حول مكة يفزوا بعضهم بعضا .

ويتخاؤون ، ويتناهبون ، وأهل مكة قارون فيها آمنون لا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب ، فذكرهم الله بهذه النعمة الخاصة عليهم ، (١) .
والاستفهام في قوله - تعالى - : « أفبالباطل يؤمنون ببنعمة الله يكفرون » ، للتعجب من حالهم ، وللتوبيخ لهم على هذا الجحود والكفر لنعم الله - تعالى - .

أى : أفبعد هذه النعمة الجليلة يؤمنون بالأصنام وبنعمة الله التي تستدعي لاستجابتهم للحق يكفرون .

فآية الكريمة قد اشتملت على ما لا يقادر قدره ، من تعجب وتوبيخ وتقريع وقوله - تعالى - : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه » . أى : لا أحد أشد ظلما ممن افترى على الله كذبا ، بأن زعم بأن الله - تعالى - شريكا ، أو كذب بالحق الذي جاءه به الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن أعرض عنه ، وأبى أن يستمع إليه .

والاستفهام في قوله - تعالى - : « أليس في جهنم مثوى للكافرين » ، للتقرير والمثوى المكان الذى يشوى فيه الشخص ، ويقم به ، ويستقر فيه .

أى : أليس في جهنم ماوى ومكانا يستقر فيه هؤلاء الكافرون انعم الله - تعالى - ؟ بلى إن فيها مكانا لاستقرارهم ، وبئس المكان ، فإنها ساء ما مستقرا ومقاما .

ثم ختم - سبحانه - الصورة الكريمة بقوله - تعالى - : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ، وإن الله لمع المحسنين .

أى : هذا الذى ذكرناه سابقا من سوء مصير ، هؤلاء المشركين الذين يؤمنون بالباطل ويتركون الحق ، أما الذين بذلوا جهدهم في سبيل إعلاء ديننا ، وقدموا

أنفسهم وأموالهم في سبيل رضاتنا وطاعتنا ، وأخلصوا لنا العبادة والطاعة ،
فإننا لن نتخلى عنهم ؛ بل سنهديهم إلى الطريق المستقيم ؛ ونجعل العقوبة الطيبة
لهم ؛ فقد إفتضت رحمتنا وحكمتنا أن نكون مع المحسنين في أقوالهم وفي
أفعالهم ، وتلك سنتنا التي لا تتخلف ولا تتبدل .

وبعد فهذا تفسير لسورة « العنكبوت » نسأل الله - تعالى - أن يجعله
خالصا لوجهه ، ونافعنا لعباده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د . محمد سيد طنطاوى

الأستاذ بجامعة الأزهر

القاهرة : مدينة نصر . ظهر الأحد ١٩/٥/١٤٠٥ هـ

٦/٢/١٩٨٥ م

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة والتمهيد	٥
١	آلم. أحسب الناس أن يتركوا ..	٦
٨	ووصينا الإنسان بوالديه ..	١٦
١٠	ومن الناس من يقول آمنا بالله ..	١٦
١٤	ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ..	٧٢
١٨	وإن تكذبوا فقد كذب أمم ..	٢٦
٢٤	فما كان جواب قومه ..	٣١
٢٨	ولوطا إذ قال لقومه ..	٣٧
٣٦	وإلى مدين أخاهم شعيبا ..	٤٣
٤١	مثل الذين اتخذوا من دون الله ..	٤٨
٤٤	خلق الله السموات والأرض ..	٤٨
٤٦	ولاتجادلوا أهل الكتاب ..	٤٨
٥٠	وقالوا لولا أنزل عليه آيات ..	٥٥
٥٦	يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى ..	٥٩
٦١	ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ..	٦٢

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سُورَةُ الزُّمَرِ

الدكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي الديار المصرية

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة وتمهيد

١ - سورة الروم هي السورة الثلاثون في ترتيب المصحف أما ترتيبها في النزول فهي السورة الثانية والثمانون ، وقد كان نزولها بعد سورة الإنشقاق .

٢ - وقد افتتحت بالحديث عن قصة معينة ، وهي قصة الحروب التي دأبت بين الفرس والروم ، والتي انتهت في أول الأمر بانتصار الفرس ، ثم كان النصر بعد ذلك للروم .

قال - تعالى - : د ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون . في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء . وهو العزيز الرحيم .

٣ - ثم وجدت السورة الكريمة الكافرين ، أهدم تفكيرهم في أحوال أنفسهم ، وفي أحوال السابقين الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا ، وتوعدتهم بسوء المصير بسبب انطماس بصائرهم ، وإهراضهم عن دعوة الحق ، ووعدت المؤمنين بحسن الجراء .

قال - تعالى - : د ويوم تقوم الساعة يومئذ يفرقون ، فأما الذين آمنوا وحملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ، فأولئك في العذاب محضرون .

٤ - ثم ساقَت السورة الكريمة بعد ذلك اثني عشر ذليلا على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وقد بدئت هذه الأدلة بقوله - تعالى - : د ومن آياته أن

خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاءكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون

٥ - وبعد أن أقام - سبحانه - هذه الأدلة الممعددة على وحدانيته وقدرته أجمع ذلك بأن أمر الناس باتباع الدين الحق ، وبالإجابة إليه - تعالى - فقال : « فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تهديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . »

٦ - ثم بين - سبحانه - أحوال الناس في السراء والضراء ، ودعاهم إلى التعاطف والفراحم ، وفقرهم من تعاطى الربا ، فقال - تعالى - : « فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون . وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله ، فأولئك هم المضعفون »

٧ - ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من نعمه على عباده ، وبين الآثار السنية التي تقرّب على جوارحه هذه النعم ، ودعا الناس للمرة الثانية إلى اتباع الدين القيم ، الذي لا يقبل الله - تعالى - دينا سواه ، فقال - تعالى - : « فاقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد من الله يومئذ يصدعون ، من كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهّدون . »

٨ - ثم عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة الله في الرياح وفي إرسال الرسل ، وأمر كل حافل أن يتأمل في آثار هذه النعم ، ليرداد إيمانا على إيمانه ، فقال - تعالى - « فانظر إلى آثار رحمته الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير »

٩ — ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان أهوال الساعة ، وحكى أقوال أهل العلم والإيمان ، في ردهم على المجرمين عندما يقسمون أنهم ما لبثوا في هذه الدنيا سوى ساعة واحدة ، وأمر - سبحانه - نبيه - ﷺ - أن يصبر على أذى أعدائه ، فقال - تعالى - : « قاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفك الذين لا يوقنون » .

١٠ — وهكذا نجد أن سورة الروم ، قد أفاضت في الحديث عن الأدلة المتعددة ، التي تشهد بوحداية الله - تعالى - وقدرته ، كما تشهد بأن هذا القرآن من عند الله ، وبأن يوم القيامة حق وصدق ، كما سافت آيات متعددة في المقارنة بين مصير الأخيار ، ومصير الأشرار ، ودعت الناس إلى الثبات على الدين الحق ، وهو دين الإسلام ، كما حضت على التعاطف والقراحم بين المسلمين ، ونهت عن تعاطي الربا ، لأنه لا يربو عند الله - تعالى - ، وإنما الذي يعطى من صدقات هو الذي يربو عند الله - عز وجل - ، كما ذكرت أنواعا من النعم التي أنعم الله - تعالى - بها على عباده ، وأمرتهم بشكره - سبحانه - عليها ، لكي يزيدهم من فضله ...

هذه أهم المقاصد التي اشتملت عليها السورة الكريمة ، وهناك مقاصد أخرى يراها من يتدبر هذه السورة الكريمة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

محمد سيد طنطاوى

القاهرة - مدينة نصر - ١٧ من رجب سنة ١٤٠٥ هـ

١٩٨٥ / ٣ / ٧ م

(م ٦ - الروم)

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ غَلِبَتِ الرُّومُ ﴿١﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ
 قَلْبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٢﴾ فِي بِضْعِ سنينَ ۖ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ
 وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ
 النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ
 الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾

سورة الروم من السور التي افتتحت ببعض حروف التهجى، وقد ذكرنا
 في أكثر من سورة آراء العلماء في هذه الحروف، ورجعنا أن هذه الحروف
 قد ذكرها - سبحانه - في افتتاح بعض السور القرآنية، للتنبيه إلى أن هذا
 القرآن من عند الله، لأن الله - تعالى - قد أزله على رسوله - صلى الله عليه
 وسلم - بمثل الحروف التي يتعاقب بها المفركون، ومع ذلك فهم أعمى من
 أن يأتوا بسورة من مثله ..

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول قوله - تعالى - : غلبت الروم . في
 أدنى الأرض ... روايات منها، ما رواه ابن جرير - بإسناده - عن عبد الله
 ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : كانت فارس ظاهرة على الروم . وكان
 المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر

الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، وم أقرب إلى دينهم ، فلما نزلت :
 « ألم ، غلبت الروم في أدنى الأرض . . » ، قالوا : يا أبا بكر ، إن صاحبك
 يقول : إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين . قال : صدق . قالوا : هل
 لك أن نقامرك — أى : نراهنك وكان ذلك قبل تحرير الرمان — فبايعوه
 على أربع قلائص — جمع قلوص ، وهى من الإبل : الشابة — إلى سبع
 سنين . فضت السبع ولم يكن شئ . ففرح المشركون بذلك ، فشق على
 المسلمين ، فذكر النبي (ﷺ) فقال : ما بضع سنين عنكم ؟ قالوا : دون
 العشر . قال : لذهب فرايدهم ، وازدد سنين في الاجل . قال : فامضت
 الستتان حتى سمات الركبان بظهور الروم على فارس . ففرح المؤمنون
 بذلك . . . (١) .

وقال بعض العلماء : اتفق المؤرخون من المسلمين وأهل الكتاب على
 أن ملك فارس كان قد عزا بلاد الشام مرتين : في سنة ٦١٣ ، وفي سنة ٦١٤
 أى : قبل الهجرة بسبع سنين ، لحدث أن بلغ الخبر مكة . ففرح المهركون ،
 وشتوا في المسلمين . . . فوات هذه الآيات .

فلم يرض من البعض — وهو ما بين الثلاث إلى التسع — سبع سنين ،
 إلا وقد انتصر الروم على الفرس ، وكان ذلك سنة ٦٢١ م . أى : قبل
 الهجرة بسنة . . . (٢) .

وأدنى بمعنى أقرب ، والمراد بالأرض : أرض الروم .

أى : غلبت الروم في أقرب أرضها من بلاد الفرس .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٠٦ ، وتفسير ابن جرير
 ج ٣١ ص ١٣

(٢) تفسير القاسمي ج ١٢ ص ٤٧٦٥

قال ابن كثير : وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم ، حين غلبت الروم ، بين أذرعات وبصرى ، — على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما — ، وهى طرف بلاد الشام ما يلى الحجاز .

وقال مجاهد : كان ذلك فى الجزيرة . وهى أقرب بلاد الروم من فارس . (١) .

وقال الألوسى : والمراد بالأرض أرض الروم ، على أن دأل ، نائبة متاب للضمير المضاف إليه ، والأقربىة بالنظر إلى أهل مكة ، لأن الكلام معهم ، أو المراد بها أرض مكة وفواحيها ، لأنها الأرض المعهودة عندهم ، والأقربىة بالنظر إلى الروم . . . (٢) .

وقوله — تعالى — : « وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين ، بشارة من الله — تعالى — للمؤمنين ، بأن الله — تعالى — سيحقق لهم ما يرجونه من انتصار الروم على الفرس .

أى وهم — أى الروم — من بعد هزيمتهم من الفرس ، سيغلبون ، سيغلبون ، خلال بضع سنين .

والتمبير بقوله — تعالى — : « سيغلبون فى بضع سنين ، لتأكيد هذا الوعد ، ببيان أن نصر الروم على فارس سيتم خلال سنوات قليلة من هزم الأمم ، وقد تحقق هذا الوعد على أكمل صورة وأتمها ، فقد انتصر الروم على الفرس نصرا عظيما ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله — تعالى — ، حيث أخبر عن أمور مستقعة فى المستقبل ، وقد وقعت كما أخبر .

(١) نفسه ابن كثير ٦٣ ص ٢١٠

(٢) تفسير الألوسى ٢١ ص ١٧

وقوله — سبحانه — : « الله الأمر من قبل ومن بعد » جملة مفردة
ليبين قدرة الله — تعالى — التامة النافذة ، في كل وقت وآن .

أى : الله — تعالى — وحده الأمر النافذ من قبل انتصار الفرس على
الروم ، ومن بعد انتصار الروم على الفرس ، وكلا الفريقين كان نصره
أو هزيمته بإرادة الله ومشيئته ، وليس لاحد من الخلق أن يخرج عما قدره
— سبحانه — وأراد .

« يومئذ » أى : وهوم أن يتغلب الروم على الفرس ، يفرح المؤمنون
بنصر الله ، حيث نصر أهل الكتاب وهم الروم ، على من لا كتاب لهم وهم
الفرس ، الذين كانوا يعبدون النار فأبطل — سبحانه — بهذا النصر شيانة
المشركين في المسلمين ، وإزدهاد المؤمنون ثباتاً على ثباتهم .

قال ابن كثير : وقد كانت نصر الروم على فارس ، يوم وقعة بدر ، في
قول طائفة كبيرة من العلماء... وقال آخرون : بل كان النصر للروم على
فارس عام الحديبية . فلما انتصرت الروم على فارس ، وفرح المؤمنون
بذلك ، لأن الروم أهل كتاب في الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من
المجوس : . (١) .

وقوله — سبحانه — : « ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » مؤكداً
لما قبله . أى : ينصر — سبحانه — من يريد نصره ، ويهزم من يريد
هزيمته ، وهو العزيز الذي لا يغلبه غالب ، الرحيم الذي يرحم كل شيء .
ثم زاد — سبحانه — هذا الأمر تأكيداً وتقوية فقال : « وعد الله
لا يخلف الله وعده »

ولفظ « وعد » منصوب بفعل محذوف .

(١) تفسير ابن كثير ٦٣ ص ٣١٠

أى : وعد الله المؤمنين بالنصر وبالفرح وعداً مؤكداً ، وقد اقتضت سنته - سبحانه - أنه لا يخلف وعده .

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ذلك ، لاطماس بصائرهم ، ولاستيلاء الجهل على عقولهم ، ولاستحواف الشيطان عليهم .

والضمير فى قوله - تعالى - : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ... » يعود للأكثر من الناس .

أى : هؤلاء الأكثر من الناس ، من أسباب جهلهم بسنن الله - تعالى - فى خلقه ، أنهم لا يتمنون إلا بملاذ الحياة الدنيا ومتعها وشهواتها ، ووسائل المعيشة فيها .

« وهم عن الآخرة ، وما فيها من حساب وثواب وعقاب ، هم غافلون ، لأنهم آثروا الدار العاجلة ، على الدار الباقية ، فهم - كما قال - تعالى - : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : وقوله : « يعلمون ظاهراً ... » بدل من قوله : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وفى هذا الإبدال من النكتة أنه أبده منه ، وجعله بحيث يقوم مقامه ، ويصد مسده ، ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذى هو الجهل ، وبين وجوه العلم الذى لا يتجاوز الدنيا .. وفى تنكير قوله : « ظاهراً ، إشارة إلى أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة ظواهر الحياة الدنيا ... » (١) .
تأية الكريمة تنمى على هؤلاء الكافرين وأشباههم ، أنهما كرم فى شئون

الدنيا انهما كانا ما جعلهم غافلين عما يقتضيه في آخرهم من حساب وعقاب
ورحم الله الغافل :

ومع البلية أن ترى لك صاحباً في صورة للرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة في ماله وإذا يصاب بديفله لم يشعر

• • •

ثم حضهم - سبحانه - على التفكير في خلق أنفسهم ، وعلى التفكير
في ملكوت السموات والأرض ، لعل هذا التفكير والتدبر يهديهم إلى الصراط
المستقيم . فقال - تعالى - :

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ
 اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ
 كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
 فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
 وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
 فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ
 الَّذِينَ اسْتَفْتُوا السَّوَءَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾
 اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
 يُنْفِثُ الْمَاجِرُمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا
 بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾
 فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَائِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ
 مُخَضَّرُونَ ﴿١٦﴾

والاستفهام في قوله - تعالى - : : أولم يتفكروا في أنفسهم ، ما خلق الله
 السموات والارض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ، لتوبيخ أولئك

الكافرين الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم من الآخرة هم غافلون والواو المعطف على مقدر يقتضيه المقام . وهما ، في قوله ، ما خلق ، للنفى ، والباء في قوله ، إلا بالحق ، للملابسة . وقوله : « وأجل مسمى ، معطوف على الحق .

والمعنى : أبلغ الجمل هؤلاء الكافرين ، أنهم اكتفوا بالاسمك في متع الحياة الدنيا ، ولم يتفكروا في أحوال أنفسهم وفي أطوار خلقها ، لأنهم لو تفكروا لعلموا وأيقنوا ، أن الله - تعالى - ما خلق السموات والأرض وما بينهما ، إلا ملتبسة بالحق الذي لا يشوبه باطل ، وبالحكمة التي لا يحوم حولها عبث ، وقد قدر - سبحانه - لهذه المخلوقات جميعها أجلا معيناً تنهى عنه ، وهو وقت قيام الساعة ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات .

فآية الكريمة تنمى على هؤلاء الأشقياء ، غفلتهم عن الدار الآخرة وما فيها من حساب ، وتحضهم على التفكير في تكوين أنفسهم ، وفي ملكوت السموات والأرض ، لأن هذا التفكير من شأنه أن يهدي إلى الحق ، كما خلفت أنظارهم إلى أن لهذا الـكون كله نهاية ينتهى عندها ، وقت أن يأذن الله - تعالى - بذلك ، وبقيام الساعة .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان موقف الأكرية من الناس من قضية البعث والجلاء فقال : « وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون . »

أى : وإن كثيرا من الناس لنى انفعال تام بدنياهم عن آخرتهم ، ولا يؤمنون بما فى الآخرة من حساب وثواب وعقاب ، بل يقولون : ما الحياة إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، وعلى رأس هذا الصنف من الناس مضر كرمكة الذين أرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - فيهم ، لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

وقال - سبحانه - : « وإن كثيرا من الناس ... للإشعار بأن هناك عددا قليلا من الناس - بالنسبة لهؤلاء الكافرين - قد آمنوا ببقاء ربهم ، واستعدوا لهذا اللقاء عن طريق العمل الصالح الذى يرضى خالقهم - عز وجل - .

ثم قرعهم - سبحانه - للمرة الثانية على عدم انعاضهم بأحوال السابقين من الأمم قبلهم ، فقال - تعالى - : « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ... »

أى : أقعد مهركو مكة فى ديارهم ، ولم يسيروا فى الأرض سير المناملين المتفكرين المعبرين ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، من الأمم الماضية ، كقوم عاد وثمود ، وقوم لوط .

وقوله - سبحانه - : « كانوا أشد منهم قوة ، بيان لحال هؤلاء الأقوام السابقين ، وأثاروا الأرض ، أى : كان أولئك السابقون أقوى من أهل مكة فى كل مجال من مجالات القوة ، وكانوا أقدر منهم على حراثة الأرض ، وتبشيتها للزراعة ، واستخراج خيراتها من باطنها . »

« وعمروها أكثر مما عمروها ، أى : حراثوا الأرض وشقوها من باطنها ، وعمروها عمارة أكثر من عمارة أهل مكة لها ، لأن أولئك الأقوام السابقين كانوا أقوى من كفار مكة ، وكانوا أكثر حداثة بعمارة الأرض .

وهؤلاء الأقوام السابقون : « جاءتهم رسلهم بالبينات ، أى : بالمعجزات الواضحات ، وبالصحج الساطعات ، ولكن هؤلاء الأقوام كذبوا رسلهم ، فأهلكهم الله - تعالى - . « فإنا كان الله ليظلمهم ، أى : فإنا كان الله - تعالى - من شأنه أن يعذبهم بدون ذنب .

« واسكن كانوا أنفسهم يظلمون ، حيث ارتكبوا من الكفر والمعاصى ما كان سببا فى هلاكهم .

ثم بين - سبحانه - المصير السيئ ، الذى حل بهؤلاء الكافرين فقال :
 « ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوءى . . . » .

ولفظ «عاقبة» ، قرأه ابن عامر وعاصم وحزة والكسائى - بفتح التاء -
 على أنه خير كان قدم على اسمها ، وهو لفظ «السوءى» ، الذى هو تأنيث
 الأسوأ ، كالحسنى تأنيث الأجسن ، وجرد الفعل «كان» ، من التاء مع أن
 السوءى مؤنث ، لأن التأنيث غير حقيقى .

فيكون المعنى : ثم كانت العقوبة السيئة . وهى العذاب فى جهنم ، عاقبة
 الذين عملوا فى دنياهم الأعمال السيئات .

وقرأ الباقر بن رفع لفظ «عاقبة» ، على أنه خبر كان . وخبرها لفظ «السوءى»
 أى : ثم كانت عاقبة هؤلاء الكافرين الذين أساؤا فى دنياهم ، أسوأ العقوبات
 وأفجعها . أو كانت عاقبتهم السوءى وهى الإلقاء بهم فى النار وبس القرار .

وقوله - سبحانه - : « أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون »
 تعليل لما آل إليه أمرهم من عاقبة سيئة ، أى : لأن كذبوا ، أو بأن كذبوا
 بحذف حرف الجر .

أى : كانت عاقبتهم فى الآخرة أسوأ العقوبات وأفجعها وهى العذاب فى
 جهنم ، لأنهم فى الدنيا كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وعلى صدق
 نبينا (ﷺ) وكانوا بها يستهزئون .

• • •

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على قدرته ، وبين أحوال الناس
 وأقسامهم يوم القيامة ، فقال - تعالى - : « الله يبدأ الخلق ثم يعيده .. »

أى : د الله ، — تعالى — وحده هو الذى يبدأ الخلق ، أى : ينشئه
ويوجدّه على غير مثال سابق ، ثم يعيده ، أى : إلى الحياة مرة أخرى يوم
القيامة ثم إليه ترجعون ، للحساب والجزاء ، فيجازى — سبحانه — كل
إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وأفرد — سبحانه — : الضمير فى د يعيده ، باعتبار لفظ الخلق ،
وجهه فى قوله : د ترجعون ، باعتبار معناه .

ثم ذكر - سبحانه - حال المجرمين يوم القيامة فقال : د ويوم تقوم
الساعة يلبس المجرمون د يلبس ، من الإلباس بمعنى السكوت والذهول
وانقطاع الحجة . يقال : ألبس الرجل ، إذا وقف ساكناً حائراً مبهوراً
لا يجد كلاماً ينقذه مما هو فيه من بلاء .

أى : ويوم تقوم الساعة ، ويشاهد المجرمون أهوالها ، يصابون
بالذهول والخيرة والسكوت المطبق ، لانقطاع حجبتهم ، وشدة حرّهم ومهمهم
وبأسهم من النجاة بأساً تاماً .

د ولم يكن لهم ، فى هذا اليوم د من شركاتهم ، الذين عيّدوهم فى الدنيا
د شفعا ، يشفعون لهم ، ويخبرونهم من عذاب الله .

د وكانوا بشركاتهم كافرين ، أى : أنهم فى هذا اليوم العسير لم يكن لهم
من شفعا يشفعون لهم . بل لأنهم صاروا فى هذا اليوم الشديد ، كافرين
بشركاتهم الذين قوّموا منهم الشفاعة ، لأنهم يوم القيامة تتجلى لهم الحقائق
ويعرفون أن هؤلاء الشركاء لا يرجى منهم نفع ، ولا يخشى منهم ضرر .

ثم كرر — سبحانه — هذا المعنى على سبيل التأكيد والتحويل من
شأنه فقال : د ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون .

والضمير في قوله : « يتفرقون » ، للناس جميعاً ، والمراد بتفرقهم أن كل طائفة منهم تتجه إلى الجهة التي أمرهم - سبحانه - بالتوجه إليها ، لينال جزاءه

ثم بين - سبحانه - كيفية هذا التفرق فقال : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون » .

والروضة : تطلق على كل مكان مرتفع زاخر بالنبات الحسن والمراد بها هنا : الجنة .

ويحبرون : من الحبور بمعنى الفرح والسرور والابتهاج .

أي : « ويوم تقوم الساعة » ، في هذا اليوم يتفرق الناس إلى فريقين : أما فريق الذين آمنوا وعملوا في دنياهم الأعمال الصالحات ، فيسكنون في الآخرة في جنة عظيمة ، يسرون بدخولها سروراً عظيماً ، وينعمون فيها نعمة لا يحيط به الوصف .

« وأما الذين كفروا » ، باق ورسله وبالأيوم الآخر « وكذبوا بآياتنا » الدالة على وحدانيتنا وصدق أنبيائنا « فأولئك » الكافرون « في العذاب محضرون » أي : مقيمون فيه ، ومجموعون إليه ، بحيث لا يستطيعون الهروب منه - والعياذ بالله - .

• • •

ويعد هذا البيان المؤثر لأحوال يوم القيامة ، ولأحوال النام في ...
ساق - سبحانه - أنواعاً متعددة من الأدلة والبراهين على وحدانيته - عز وجل - وقدرته ، ورحمته بخلقه ، فقال - تعالى - :

فَسُبْحَنُ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾

وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ

تَرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ

يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ

آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنْ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

كُلُّ لَهٌ قَلْبَتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

قال الإمام الرازي : لما بين - سبحانه - عظمته في الابتداء بقوله : « ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » ، وعظمته في الانتهاء ، بقوله : « ويوم تقوم الساعة » وأن للناس يتفرقون فريقين ، ويحكم - عز وجل - على البعض بأن هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وهؤلاء للنار ولا أبالي ، بعد كل ذلك أمر بتزييه عن كل سوء ، وبمحمده على كل حال ، فقال : « فسبحان الله حين تمسون ، (١) ، (٢) » .

والغناء في قوله : « فسبحان . . » ، لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ولفظ « سبحان » اسم مصدر ، منصوب بفعل محذوف ، والتسبيح : تزييه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله ، والمعنى : إذا علمتم ما أخبركم به قبل ذلك ، فسبحوا الله - تعالى - ونزهوه عن كل نقص « حين تمسون » أي : حين تدخلون في وقت المساء « وحين تصبحون » أي : تدخلون في وقت الصباح .

وقوله - تعالى - : « وله الحمد في السموات والأرض ، حمة مقترضة لبيان أن جميع الكائنات تحمده على نعمه » ، وأن فوائد هذا الثناء تعود عليهم لا عليه - سبحانه - .

وقوله « وعشيا » محذوف على « حين تمسون » أي : سبحوا الله - تعالى - حين تمسون ، وحين تصبحون ، وحين يستركم الليل بظلامه ، وحين تكونون في وقت الظهيرة ، فإنه - سبحانه - هو المستحق للحمد والثناء من أهل السموات ومن أهل الأرض ، ومن جميع المخلوقات .

قال ابن كثير ، وعن رسول الله (ﷺ) أنه قال : ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذي وفى ؟ لأنه كان يقول كما أصبح وأمسى .

« سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون »

وفى حديث آخر : من قال حين يصبح : « سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . . أدرك ما فاته فى يومه ، ومن قالها حين يمسي ، أدرك ما فاته فى ليلته ، (١) .

ثم

ثم بين - سبحانه - مظهر من مظاهر قدرته فقال : « يخرج الحى من الميت ، كما يخرج الإنسان من النطفة ، والنبات من الحب ، والمؤمن من الكافر ، ويخرج الميت من الحى ، كما فى عكس هذه الأمور ، كما يخرج النطفة من الإنسان ، والحب من النبات ، والكافر من المؤمن .

« ويحيى الأرض ، بالنبات بعد موتها ، أى : بعد تحطيم وجدها ، كما قال - سبحانه - : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج هيج ، وقوله - تعالى - : « وكذلك نخرجون ، تذييل قصد به تقريب إمكانية البعث من العقول والأفهام .

أى : ومثل هذا الإخراج البديع للنبات من الأرض ، وللحى من الميت ، نخرجكم - أيها الناس - من قبوركم يوم القيامة ، للحساب والجزاء .

ثم أورد - سبحانه - بعد ذلك أنواعا من الأدلة على قدرته التى لا يمحزها شئ ، فقال - تعالى - : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم إذا أنتم بشر تنمشون ، .

والآيات : جمع آية ، وتطلق على الآية القرآنية ، وعلى الشئ المعجيب كما فى قوله - تعالى - : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، . . والمراد بها هنا : الأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة ، الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته .

والمعنى : ومن آياته ، سبحانه - الدالة على عظمته ، وعلى كمال قدرته ، أنه خلقكم من تراب ، أي : خلاق أبابكم آدم من تراب ، وأنتم فروع عنه .
وإذا ، في قوله : ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، هي الفجائية .

أي : خلقكم بتلك الصورة البديعة من مادة التراب التي لا يرى فيها راحة للحياة ، ثم صرفكم بعد خلقنا إياكم في أطوار متعددة ، بشرا تنتهرون في الأرض ، وتمهزون في مناكبها وتقبلون فيها تارة عن طريق الراحة ، وتارة عن طريق التجارة ، وتارة عن طريق الأسفار . . . كل ذلك طلباً للرزق ، ولجمع الأموال .

وعبر - سبحانه - في المفيدة للتراخي ، لأن انتشارهم في الأرض لا يتأتى إلا بعد مرورهم بأطوار متعددة ، منها أطوار خلقهم في بطون أمهاتهم ، وأطوار طفولتهم وصباهم ، إلى أن يبلغوا سن الرشد .
قال الشوكاني : وإذا الفجائية وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء ، لكنها وقعت هنا بعد ثم ، بالنسبة إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة ، وهي أطوار الإنسان ، كما حكاه الله - تعالى - في مواضع ، من كونه نطفة ، ثم علقة ثم مضغة ، ثم عظماً مكسواً لحماً . . . (١) .

- ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان آية ثانية ، دالة على كمال قدرته ورأفته بعباده ، فقال : ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ، أي : ومن آياته الدالة على رحمته بكم ، أنه - سبحانه - خلق لكم من أنفسكم ، أي : من جنسكم في البشرية والإنسانية أزواجا .

قال الألوسي : قوله : من أنفسكم أزواجا ، فإن خلق أصل أزواجكم حوا من ضلع آدم - عليه السلام - متضمن لخلقهم من أنفسكم وفن ، للتبويض

والانفس بمعناها الحقيقى ، ويجوز أن تكون « من » ابتدائية ، والارض مجاز عن الجنس ، أى : خلق لكم من جنسكم لامن جنس آخر . قيل : وهو الاوفق لما بعد ، (١) .

وقوله - سبحانه - : « لتسكنوا اليها... » بياق امة خلقتهم على هذه الطريقة أى : خلق لكم من جنسكم أزواجا ، لتسكنوا اليها ، ويميل بعضكم إلى بعض فإن الجنس إلى الجنس أميل ، والنوع إلى النوع أكثر اتلافا وانسجاما . « وجعل ، - سبحانه - بينكم » ، يامعشر الأزواج والزوجاء « مودة ورحمة » أى : محبة ورافة ، لم تذكر بينكم قبل ذلك ، وإنما حدثت عن طريق الزواج الذى شرعه - سبحانه - بين الرجال والنساء ، والذى وصفه - تعالى - بهذا الوصف الدقيق ، فى قوله - عز وجل - : « وهن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

إذن فى ذلك ، الذى ذكرناه لكم قبل ذلك دلائل ، عظيمة تهدى إلى الرشيد وإلى الاعتبار « القوم يتفكرون » ، فى مظاهر قدرة الله - تعالى - ورحمته بخلقه .

ثم ذكر - سبحانه - آية ثالثة فقال . « ومن آياته خلق السموات والأرض ، أى : ومن آياته الدالة على قدرته التامة على كل شئ » ، خلقه السموات والأرض بملك الصورة البديعة « واختلاف ألسنتكم » ، أى : واختلاف لغاتكم فهذا يتكلم بالعربية ، وآخر بالفارسية وثالث بالردمية .. إلى غير ذلك مما لا يعلم عدده من اللغات ، بل إن الأمة الواحدة تجد فيها عشرات اللغات التى يتكلم بها أفرادها ، ومآت اللهجات « وألوانكم » ، أى : ومن آياته كذلك ، اختلاف ألوانكم ، فهذا أبيض ، وهذا أسود ، وهذا أصفر وهذا أشقر .. مع أن الجميع من أب واحد وأم واحدة وهما آدم وحواء . بل إنك لا تجد شخصين يتطابقان تطابقاً تاماً فى خلقتهما وشكلهما .

قال صاحب الكشف : الألسنة : اللغات ، أو أجناس النطق وأشكاله .
خالف - عز وجل - بين هذه الأشياء . حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في
همس واحد ، ولا جهر ، ولا حدة ، ولا رخاوة . ولا فصاحة ... ولا غير
ذلك من صفات النطق وأحواله ، وكذلك الصور وتخطيطها ، والألوان
وتوزيعها ، ولاختلاف ذلك وقع التعارف ، ولو اتفقت وتشاكلت ، وكانت
ضرباً واحداً ، لوقع التجاهل والالتباس ، ولتعملت مصالح كثيرة ... وهم
على الأكثر التي لا يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون ، (١) .

« إن في ذلك ، الذي أوضحناه لكم ، آيات ، بينات ، للعالمين ،
- بفتح اللام - وهي قراءة الجمهور ، أي : إن في ذلك آيات لجميع
أصناف العالم من بار وقاهر ، ومؤمن وكافر .

وقرأ حفص - بكسر اللام - أي : إن في ذلك آيات لأولى العلم والفهم
من الناس .

ثم ذكر - سبحانه - آية رابعة فقال : « ومن آياته منامكم ، أي :
نومكم ، بالليل والنهار . لراحة أبدانكم وأذهانكم ، « وابتغوا لكم من فضله ،
أي : وطلبكم أرواؤكم فيهما من فضل الله وعطائه الواسع .
قال الجمل : قيل في الآية تقديم وتأخير ، ليكون كل واحد مع ما يلائمه ،
والتقدير : « ومن آياته منامكم بالليل وابتغوا لكم من فضله بالنهار ، فحذف
حرف الجر لاتصاله بالليل ، وعطف عليه ، لأن حرف العطف قد يقوم
مقام الجار والأحسن أن يجعل على حاله ، والنوم بالفهار عما كانت من
العرب نعمة من الله ولا سيما في أوقات القيلولة في البلاد الحارة ، (٢) .

(١) تفسير الكشف ٢٠ ص ٤٣٣

(٢) حاشية الجمل على الآيتين ٢ ص ٢٨٩

« إن فى ذلك ، كله » آيات لقوم يسمعون ، هذه للتوجيهات سماع تدبر وتفكروا اعتبار فيعملون بما يسمعون .

ثم ساق — سبحانه — آية خاصة فقال : ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً . . .

أى : ومن آياته — سبحانه — الدالة على قدرته ، أنه يريكم البرق ، فتارة تخافون مما يحدث بعده من صواعق متلفة ، وأمطار مزعجة ، وتارة ترجعون من ورائه المطر النافع ، والغيث المدرار .

وانتصاب « خوفاً وطمعاً » على أنهما مفعول لأجله ، أى : يريكم ذلك من أجل الخوف والطمع ، إذ هما يعيش المؤمن حياته بين الخوف والرجاء ، فلا يبتر ولا ييأس من رحمة الله ، « ويزل من السماء ماء كثيراً » فيحيى به أى : بسبب هذا الماء « الأرض بعد موتها » أى : بأن يحولها من أرض جدداء هامدة إلى أرض خضراء زاخرة بالنبات « إن فى ذلك آيات لقوم يعقلون » هذه الإرشادات ، ويستعملون عقولهم فى الخير لافى الشر ، وفى الحق لا فى الباطل ، وفى استنباط المعانى الدالة على كمال قدرة الله — تعالى — ورحمته ثم ذكر — سبحانه — آية سادسة فقال : « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره . . . » والمراد بقيامها : ثباتها وبقاءها بتمام الصورة العجيبة البديعة .

أى : ومن آياته — سبحانه — الدالة على كمال قدرته ، خلقه للسموات والأرض . وإبقاؤه لهما على هذه الصورة البديعة ، وقيامهما وثباتهما واستمسكهما على تلك الهيئة العجيبة ، وذلك كله بإرادته وأمره ومشيئته

قال ابن كثير : وشبهه بذلك قوله — تعالى — : « ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه » .

وقوله : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » ، وكان عمر

ابن الخطاب - رضى الله عنه - إذا اجتهد في اليمين قال : لا ، والله الذى تقوم السماء والأرض بأمره ، أى : هى قائمة ثابتة بأمره ونسخه إياها ، (١) .

وقوله - تعالى - : ثم إذا دعاكم من الأرض إذا أنتم تخرجون ، بيان لامتناعكم لأمره بدون تقاعس ، عند ما يدعوكم الداعى للخروج من قبوركم للبعث والحساب ، و دهم ، بعدها كلام محذوف ، ود إذاه الأولى شرطية ، والثانية فجائية ، والداعى هو إسرائيل بأمر الله - تعالى - وقوله : د من الأرض ، متعلق بقوله د دعاكم .

أى : ثم بعد موتكم ووطعكم في قبوركم ، إذا دعاكم الداعى دعوة واحدة من الأرض التى أنتم مستقرون فيها ، إذا أنتم تخرجون من قبوركم مسرعين بدون تلبث أو توقف ، كما يجيب الله المطيع دعوة الداعى المطاع .

قال صاحب الكشاف : وإنما عطف هذه الجملة على قيام السموات والأرض بشم ، بيانا لعظم ما يكون من ذلك الأمر ، وإقتداره - سبحانه - على مثله وهو أن يقول : يا أهل القبور قوموا ، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر ، كما قال - تعالى - : ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، (٢)

وكما في قوله - سبحانه - : فإنا ما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ، وكما في قوله - عز وجل - : يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ، (٣) .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بآية جامعة لكل معاني القدرة والإيجاد والهيمنة على هذا الكون فقال : (وله من في السموات والأرض) أى : من

(١) تفسير ابن كثير - ٦ ص ٢١٧

(٢) تفسير الكشاف - ٣ ص ٤٧٦

(٣) سورة الإسراء . الآية ٥٣

الملائكة والجن والإنس ، خالقاً ، ومسلماً ، وتصرفاً ، كل ذلك له وحده
— سبحانه — لا لأحد غيره .

وقوله : « كل له قانتون » ، مؤكداً لما قبله ومقرر له ، أى : كل الخلاق
له لا لغيره طائعون خاضعون ، خاشعون ، طوعاً وكرهاً ، إذ لا يتمتع
عليه — سبحانه — شيء يريد فعله بهم ، من حياة أو موت ، ومن صحة
أو مرض ، ومن غنى أو فقر .

هذا ، والمتأمل في هذه الآيات الكريمة ، يرى من أكثر من عشرة أدلة على
وحدانية الله - تعالى - وعلى إنفراده بالخلق ، وعلى إمكانية البعث ، ومن هذه
الآلة خلق الإنسان من تراب ، وأصيرورته بعد قلبه في أطوار التكوين
بشراً سوياً ، وإيجاده - سبحانه - للذكور والإناث ، حتى يبقى النوع الإنسانى
إلى الوقت المقدر في علمه - تعالى - وإيجاده للناس على هذه الصورة التى اختلفت
معها ألسنتهم وألوانهم ، مع أن أصلهم واحد ، وجعله - تعالى - الليل متاعاً
لراحة الناس ، والنهار معاشاً لا ينفاء الرزق ، وإنزاله المطر من السماء لإحياء
الأرض بالنبات ، وبقاء السموات والأرض على هذه الصورة العجيبة
بأمره وتديره ... إلى غير ذلك من الأدلة المبشرة في الأنفس والآفاق .

ثم أكد — سبحانه — ما يدل على إمكانية البعث ، فقال — تعالى — :
« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ... » .

أى : وهو — سبحانه — الذى بدأ الخلق بدون مثال سابق ، ثم
يعيده هذه المخلوقات بعد موتها إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء .

والضمير في قوله : « وهو أهون عليه » ، للإعادة المفهومة من قوله « ثم
يعيده » ، والتذكير للضمير باعتبار المعنى ، أى : والموءد أو المرد ، أو الإرجاع
أهون عليه .

أى : وهو - سبحانه - وحده الذى يخلق المخلوقات من العدم ؛ ثم يعيدها

إلى الحياة مرة أخرى في الوقت الذي يريد ، وهذه الإعادة للاموات أهون عليه ، أى : أسهل عليه من البدء .

وهذه الأسهلية على طريقة التمثيل والتقريب ، بما هو معروف عند الناس من أن إعادة الشيء من مادته الأولى ، أسهل من ابتدائه .

ورحم الله صاحب الكشف ، فقد وضع هذا المعنى فقال : قوله : «وهو أهون عليه ، أى : فيما يجب عندكم ، وينقاس على أصولكم ،» يقتضيه معقولكم لأن من أعاد منكم صنعة شيء كانت أسهل عليه وأهون من إنشائها وتعتمدون للصانع إذا خطئ في بعض ما يفتنه بقولكم : أول للفرد آخرق ، حتى مرن عليها وهانت عليه .

فإن قلت لم أخرج الصلة في قوله : «وهو أهون عليه ،» وقدمت في قوله «هو على عين ،» قلت : هناك قصد الاختصاص وهو محزه ، فقل : هو عليه عين ، وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين م ، أى : شيخ فان وعافر وأما هنا فلا معنى للاختصاص ، كيف والأمر مبني على ما يعقلون ، من أن الإعادة أسهل من الابتداء ، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى ... (١) .

ومنهم من يرى أن أهون هنا بمعنى عين ، أى : إرجاعكم إلى الحياة بعد موتكم عين عليه .

والعرب تجعل أفعل بمعنى فاعل في كثير من كلامهم ، ومنه قول الشاعر :
 إن الذي سملك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعر وأطول
 أى : بنا لنا بيتاً دعائمه هريزة طويلة ومنه قولهم : الله أكبر أى : كبير .
 وقوله - تعالى - : «دوله المثل الأعلى في السموات والأرض ...» أى :

وله - سبحانه - الوصف الأعلى الذى ليس لغيره مثله ، لا فى السموات ولا فى الأرض ، إذ لا يشاركه أحد فى ذاته أو صفاته فهو - سبحانه - ليس كمثل شئ .

وهو العزيز ، الذى يغلب ولا يغلب ، الحكيم ، فى كل أقواله وأفعاله وتصرفاته .

وبعد هذا الطواف المتنوع فى آفاق الأنفس ، وفى أعماق هذا الكون ، ضرب - سبحانه - مثلاً لا مجال للجدل فيه ، لوضوحه واعتماده على المنطق السليم ، وأمر رسوله (ﷺ) أن يعضى فى طريقه المستقيم ، كما أمر المؤمنين بأن يلتفتوا إليه - سبحانه - وحده ، وأن يصدروا أنفسهم عن كل ما يفضيه ، فقال - تعالى - :

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ^{٢٨} هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَارَزَقْتِكُمْ فَإِنَّكُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ تَخِيفَتَكُمْ أَنفُسُكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٩﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِن أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣٢﴾ مِّنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٣﴾

و من ، ف قوله - سبحانه - : « ضرب لكم مثلا من أنفسكم »
ابتدائية ، والجار والمجرور في محل نصب ، صفة لقوله : « مثلا » .

أى : ضرب لكم - أيها الناس - مثلا ، يظهر منه بطلان الشرك ظهورا
واضحا ، وهذا المثل كائن من أحوال أنفسكم ، التى هي أقرب شئ - لديكم .
قال القرطبي : والآية نزلت في كفار قريش ، كانوا يقولون في التلبية :
ليك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . . . (١) .

وقوله - تعالى - : « هل لكم بما ملكت أيما نكم من شركاء فيما رزقناكم » .
تصوير وتفصيل للمثل ، والاستفهام للإنكار والنفي . ومن ، الأول للتبويض ،
والثانية لتأكيد النفي ، وقوله « شركاء » مبتدا ، وخبره « لكم » ، وقوله :
« بما ملكت أيما نكم » متعلق بمحذوف حال من شركاء .

وقوله : (فأنتم فيه سواء) جواب للاستفهام الذى هو بمعنى النفي ،
والجمله مبتدا وخبر .

وقوله : (تخافونهم) خبر ثان لأنتم ، وقوله : (كخيفة لكم أنفسكم) صفة
محذوف ، أى : تخافونهم خيفة كائنة مثل خيفتكم من هو من نوعكم .

والمعنى : ضرب الله - تعالى - لكم - أيها الناس - مثلا منتزعا من أنفسكم
التى هي أقرب شئ إليكم ، وبيان هذا المثل : أنكم لا ترضون أن يمارككم
في أموالكم التى رزقناكم إياها ، هيبيدكم وإماؤكم ، مع أنهم مثلكم في
البشرية ، ونحن الذين خلقناهم كما خلقناكم ، بل إنكم لتخافون على أموالكم
منهم ، أن يشاركوكم فيها ، كما تخافون عليها من الأهرار المشابهين لكم فـ
جواز التصرف في تلك الأموال .

فإذا كان هذا شأنكم مع هيبيدكم - الذين هم مثلكم في البشرية ، والذين

لم تخلقوا بل نحن الذين خلقناكم وخلقناهم - فكيف أجرتكم لأنفسكم أن
تشاركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى في العبادة ، مع أنه - سبحانه -
هو الخالق لكم ولهم ، والرازق لكم ولهم ١١٩

إن تصرفكم هذا ظاهر التناقض والبطلان ، لأنكم لم ترضوا أن
يشارككم غيركم في أموركم ، ورضيتم أن تشاركوا مع الله - تعالى -
غيره في العبادة ، مع أنه - سبحانه - هو الخالق والرازق لكل شيء .
فالمقصود من الآية الكريمة ، إبطال الشرك بأبلغ أسلوب ، وأوضح
بيان ، وأصدق حجة ، وأقوى دليل .

ولذا ختمها - سبحانه - بقوله : (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون)
أى : مثل ذلك التفصيل للعلل الواضح ، نفصل الآيات العظيمة ، وحدثنا
لقوم يعقلون هذه الأمثال ، ويستفهمون بها في إخلاص العبادة لله الواحد القهار .
قال الإمام القرطبي : قال بعض العلماء : هذه الآية أصل في الشركة بين
المخلوقين ، لافتقار بعضهم إلى بعض ، ونفيها عن الله - سبحانه - ، وذلك
أنه قال - سبحانه - : (ضرب لكم مثلا من أنفسكم . .) فيجب أن
يقولوا : ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقنا . فيقال لهم : فكيف يتصور أن
تنزهوا أنفسكم عن مشاركة عبيدكم ، وتجعلوا عبيد شركائكم في خلقى ،
حكم فاسد ، وقلة نظر وعى قلب ١١

فإذا أبطلت الشركة بين العبيد وصاداتهم فيما يملكه السادة ، والخلق كلهم
عبيد الله - تعالى - فيبطل أن يكون شيء من العالم شركاؤه - تعالى - في شيء
من أفعاله . .

ثم قال -- رحمه الله -- : وهذه المسألة لأفضل لطالب ، من حفظ
ديوانه كامل في الفقه ، لأن جميع العبادات البدنية ، لا تصح إلا بتصحيح
هذه المسألة في القلب فافهم ذلك (١) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن هؤلاء المشركين لم يفتنعوا بهذه الأمثال لاستيلاء الجهل والعداوة عليهم فقال : « بل إلتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم »

أى : لم يفتنع هؤلاء الظالمون بهذا المثل الجلى في إبطال الشرك ، بل لجوا في كفرهم ، واتبعوا أهواءهم الواثقة ، وأفكارهم الفاسدة ، وجمالاتهم المطبقة دون أن يصرفهم عن ذلك علم نافع ، فمن يهدى من أضل الله أى : إذا كان هذا هو حالهم ، فمن الذى يستطيع أن يهدى إلى الحق ، من أضله الله - تعالى - عنه بسبب زيفه وإستحبابه للعمى على الهدى .

لأنه لا أحد يستطيع ذلك ، وما لهم من ناصرين ، ينصرونهم من عقابه - سبحانه - لهم .

ثم أمر سبحانه - رسوله صلى الله عليه وسلم - أن يثبت على الحق الذى هداه - عز وجل - إليه فقال :

« فأقم وجهك للدين حنيفا ... ، والفاء هى الفصيحة ، وقوله : « أقم ، من الإقامة على الشيء والثبات عليه ، وعدم التحول عنه .

وقوله : « حنيفا ، من الحنف ، وهو الميل من الباطل إلى الحق ، وضده الجيف . و « حنيفا ، حال من فاعل « أقم » .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لك - أيها الرسول الكريم - من بطلان الشرك فأنبت على ما أنت عليه من إخلاص للعبادة لله - تعالى - وحده ، وأقبل على هذا الدين الذى أوحاه الله إليك ، بدون التفتات عنه ، أو ميل إلى سواه .

قال صاحب الكشف : قوله : « فأقم وجهك للدين حنيفا ، أى : فقوم وجهك له وعدله ، غير ملتفت عنه يمينا أو شمالا . وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه وثباته ، واهتمامه بأسبابه ، فإن من اهتم بالشئ عقد عليه طرفه ، وسدد إليه نظره ، وقوم له وجهه ، مقبلا به عليه .

والمراد بالفطرة في قوله - تعالى - : « فطرة الله التي فطر الناس .. » الملة .
أى : ملة الإسلام والتوحيد .

أو المراد بها : قابلية الدين الحق ، والتهيؤ النفسى لأدراكه . والأصل
فيها أنها بمعنى الخلقة .

أى : أثبت - أيها الرسول الكريم - على هذا الدين الحق ، والزموا
- أيها الناس - فطرة الله ، وهى ملة الحق ، التي فطر الناس عليها ،
وخلقهم قابلين لها .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية . « يقول - تعالى - : فسده وجهك
واستمر على الدين الذي شرعه الله لك ، من الحنيفية ملة إبراهيم ، وأنت مع
ذلك لازم فطرتك السليمة ، التي فطر الله الخلق عليها ، فإنه - تعالى - فطر
خلقه على معرفته وتوحيده .

وفي الحديث : « إني خلقت عبادى حنفاء ، فأجناهم - أى حولتهم -
الشياطين عن دينهم . . . »

ودرى البخارى عن أبى هريرة أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال
ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ،
كما تنتج الهميمة بهيمة جمعاء ، هل تحصون فيها من جهنم ؟ ثم يقول : فطرة
الله التي فطر الناس عليها . . . (١) .

وقال صاحب الكشف : فإن قلت : لم وحد الخطاب أولا ، ثم جمع ؟
قلت : خوطب رسول الله - ﷺ - أولا ، وخطاب الرسول لأمته ، مع
ما فيه من التعظيم للإمام ، ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص . . . (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٤٠

(٢) تفسير الكشف ج ٣ ص ٤٧٩ .

وقوله : « لا تبدل الخلق الله » تعليل لما قبله من الأمر بلزوم الفطرة التي
قطر - سبحانه - للناس عليها .

أى : ألزموا فطره الله الذى هى دين الإسلام ، وقبول تعاليمه والعمل بها
لأن هذا الدين قد ارتضاه الله - تعالى - لكم ، ولا تبدل ولا تغير لما فطركم
عليه وارتضاه لكم .

وذلك ، الدين الذى اختاره - سبحانه - لكم ، هو الدين القيم ،
أى : القويم المستقيم ، الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف .

فاسم الإشارة يعود إلى الدين الذى أمرنا - سبحانه - بالثبات عليه ، فى
قوله : « فأقم وجهك للدين حنيفا » .

وقوله - تعالى - : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » استمراء لبيان
موقف الناس من هذا الدين القيم .

أى : ذلك الدين الذى ارتضيته لكم هو الدين القيم ، ولكن أكثر الناس
لا يعلمون هذه الحقيقة ، بسبب استحواذ الشيطان عليهم ، واتباعهم للأهواء
الزائفة ، والتقاليد الفاسدة .

ثم حرضهم - سبحانه - على الاستمرار فى اتباع توجيهات هذا الدين
القيم فقال : « منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ... » :

قال القرطبي : وفى أصل الإنابة قولان : أحدهما : أنه القطع . ومنه أخذ
اسم الناب لأنه قاطع ، فكان الإنابة هى الإنقطاع إلى الله - عز وجل -
بالطاعة . والثانى : أن أصله الرجوع ، مأخوذ من ناب ينوب إذا رجع مرة
بعد أخرى ، ومنه النوبة لأنها الرجوع إلى عادة . - ولفظ « منيبين »
منصوب على الحال ... ، (١) .

والمعنى : أقيموا وجوهكم - أيها الناس - لخالفكم وحده ، حالة كونكم راجعين إليه بالتوبة والطاعة ، ومقبلين إليه بالاستغفار والعبادة ، ومتقين له في كل أحوالكم ، ومداومين على إقامة الصلاة في أوقاتها بخشوع واطمئنان ، ولا تكونوا من المشركين ، المبذلين لفطرة الله - تعالى - ، المتبعين لأهوائهم وشهواتهم .

وقوله : من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، بدل مما قبله .
 أى : ولا تكونوا من المشركين ، الذين اختلفوا في شأن دينهم باختلافات شتى على حسب أهوائهم ، وصاروا شيعا وفرقا وأحزابا متنازعة .
 وكل حزب بما لديهم فرحون ، أى : كل حزب منهم صار مسرورا بما لديه من دين باطل ، وملة فاسدة ، وحقيقة زائفة ، وهذا الفرع بالباطل سببه جهلهم ، وانطباع بصائرهم عن الانقياد والحق . . .

• • •

ثم بين - سبحانه - أحوال الناس في السراء والضراء وعندما يوسع الله - تعالى - في أرزاقهم ؛ وعندما يضيق عليهم هذه الأرزاق ؛ فقال - تعالى - :

وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ
 رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٩﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ
 فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ
 بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ
 تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٤٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ
 اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
 يُؤْمِنُونَ ﴿٤٣﴾

أى : • وإذا مس الناس ضر ، من قحط أو مصيبة في المال أو الولد ؛
 • دعوا ربهم منيبين إليه ، أى : إذا نزل بهم الضر ، أسرعوا بالدهاء إلى الله
 - تعالى - متضرعين إليه أن يكشف عنهم ما نزل بهم من بلاء .

هذا حالهم عند الشدائد والكروب ؛ أما حالهم عند العافية والغنى
 وتفريج الهموم ؛ فقد هرب عنه - سبحانه - بقواه : (ثم إذا أذاقهم منه رحمة
 إذا فريق منهم بربهم يشركون) .

و (إذا) الأولى شرطية ؛ والثانية فجائية .

أى : هم بمجرد نزول الضر بهم يلجأون إلى الله - تعالى - لازالته ؛ ثم إذا
 ما كشفه عنهم ، وأحاطهم برحمته ، أسرع فريق منهم بعبادة غيره
 - سبحانه - .

وقوله - تعالى - : « إذا فريق منهم ، : إنصاف وتشريف لفريق آخر من الناس ، من صفاتهم أنهم يدكرون الله - تعالى - فى كل الأحوال ويصيرون عند البلاء ، ويشكرون عند الرخاء . »

والتذكير فى قوله - سبحانه - « ضر ، ورحمة » الإشارة إلى أن هذا النوع من الناس ، يجزعون عند أقل ضر ، ويبتطرون ويطنفون لأدنى رحمة ونعمة .

واللام فى قوله - تعالى - : « ليكفروا بما آتيناكم ، هى العاقبة . أى : فعلوا ما فعلوا من الجوع عند الضر ، ومن البطار عند النعم ، ليكون ما ل حالهم إلى الكفر والجور لنعم الله ، وإلى سوء العاقبة والمصير . »

ثم التفت إليهم - سبحانه - بالخطاب مهدداً ومتوعداً فقال : « فتمتعوا فسوف تعلمون ، أى : فتمتعوا - أيها الجاحدون لنعم الله - هذا المنافع الزائل من متع الحياة الدنيا ، فسوف تعلمون ما سيقرب على ذلك من عذاب مهين . »

وقوله - تعالى - : « أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يهملون ، للنفات من الخطاب إلى الغيبة ، على سبيل التحقير لهم ، والتهوين من شأنهم ، والاستفهام للنفى والتوبيخ . »

والسلطان : الحجية والعهدان .

أى : هؤلاء الذين أشركوا معنا غير نافي العبادة . هل نحن أنزلنا عليهم حجة ذات قوة وسلطان تشهد لهم بأن شر كهمل لا يخالف الحق ، وتنتطق بأن كفرهم لا غير عليه ؟

كلا ، إنما ما أنزلنا عليهم شيئاً من ذلك ، وإنما هم الذين وقعوا فى الشرك ، بغير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير .

فَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَهْتَكُم بِهِم لَسْفَهُمْ وَجَهْلُهُمْ ، وَتَقْنِي أَنْ يَكُونَ شَرُّكُمْ
مَبْنِيًّا عَلَى دَلِيلٍ أَوْ مَا يَشْبَهُ الدَّلِيلِ ، أَوْ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مِنْ أَمْرِهِمْ بِهِ سَوَى
تَقَالِيدِهِمُ الْبَاطِلَةِ ، وَأَهْوَاؤِهِمُ الْفَاسِدَةِ ، وَأَفْكَارِهِمُ الزَّائِفَةِ .

ثم عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال بعض النفوس البشرية
في حالتَي العسر واليسر ، فقال - تعالى - : « وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً ، مِنْ صَحَّةٍ
أَوْ غْنًى أَوْ أَمَانَ ، فَرَحُوا بِهَا ، أَيْ : فَرَحُوا بِهَا فَرَحَ الْبَطْرِ الْأَشْرَ ، الَّذِي
لَا يَقَابِلُ نِعَمَ اللَّهِ - تعالى - بِالشُّكْرِ ، وَلَا يَسْتَعْمِلُهَا فِيهَا خَلْقَتْ لَهُ .

فالمراد بالفرح هنا : الجحود والكفران للنعم ، وليس مجرد السرور
بالحصول على النعم .

« وَإِنْ تَصِبُّهُمْ سَيِّئَةٌ ، أَيْ : شِدَّةٌ أَوْ مُصِيبَةٌ ، بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ ، أَيْ :
بِسَبَبِ شُؤْمِ مَعَاصِيهِمْ ، وَلِعَمَلِهِمْ لَشُكْرِ اللَّهِ - تعالى - عَلَى نِعْمَةٍ « إِذَا هُمْ
يَقْنَطُونَ ، أَيْ : أَسْرَعُوا بِالْيَأْسِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَقَنَطُوا مِنْ فَرْجِهِ ، وَأَسْوَدَتْ
الْدُّنْيَا فِي وَجْهِهِمْ ، شَأْنُ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ سُنَنَ اللَّهِ - تعالى - فِي خَلْقِهِ ،
وَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَهُمْ عِنْدَ السَّرَاءِ جَا حِدُونَ مَغْرُورُونَ ،
وَعِنْدَ الضَّرَاءِ قَانَطُونَ يَأْسُونَ .

وعبر - سبحانه - في جانب الرحمة بإذا ، وفي جانب المصيبة بآن ،
للإشعار بأن رحمته - تعالى - بعباده متحققة في كل الأحوال ، وأن
ما ينزل بالناس من مصائب ، هو بسبب ما اجتروا من ذنوب .

وانسب - سبحانه - الرحمة إلى ذاته فقال : « وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ
رَحْمَةً ، ، دُونَ السَّيِّئَةِ فَقَدْ قَالَ : « وَإِنْ تَصِبُّهُمْ سَيِّئَةٌ ، لِنَعْلَمَ الْعِبَادَ الْأَدَبَ
مَعَ خَالِقِهِمْ - عز وجل - ، وَإِنْ كَانَ السَّكَلُ بِيَدِهِ - سبحانه - وَبِعَشِيَّتِهِ
(٨٢ - الروم)

وشبيه بهذا قوله - تعالى - : «وَأَنَا لَا أَدْرِي أَشْرَأُ رَيْدَ عَيْنٍ فِي الْأَرْضِ» .
أم أراد بهم ربهم رشداً .

والتعبير بإذا الفجائية في قوله «إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ» ، الإشارة إلى سرعة
يأسهم من رحمة الله - تعالى - ، حتى ولو كانت المصيبة هيئة يسيرة ، وذلك
لضعف بقينهم وإيمانهم . إذ القنوط من رحمة الله ، يتنافى مع الإيمان الحق .

ثم عقب سبحانه - على أحوالهم هذه بالتعجب من شأنهم ، وبالتقريع
لهم على جهلهم ، فقال : «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ» .

أى : أجهل هؤلاء الناس الذين لم يحاطوا بالإيمان قلوبهم ، ولم يشاهدوا بأعينهم
أن الله - تعالى - بمقتضى حكمته ، يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ،
ويضيقه على من يشاء منهم ، لإراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا يسأل
عما يفعل .

إن واقع للناس إشماد ويعلم : أن الله - تعالى - يبسط الرزق لمن
يشاء ويقدر ، فما هؤلاء القوم ينكرون هذا الواقع بأفعالهم القبيحة ، حيث
لأنهم يبطرون عند الحراء ، ويقنطون عند الضراء ؟ فالقصد بالآية الكريمة
لويبينهم على عدم فهمهم أسنن الله في خلقه .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : «لَنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»
أى : إن في ذلك الفى ذكرناه لكم من أحوال الناس ، ومن قدرتنا على كل
«لآيات» ، واضحات ، وهى بينات لقوم يؤمنون بما أرشدناهم إليه ،
ويعملون بما يقتضيه إيمانهم .

• • •

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك . ما يجب على المسلم بالنسبة -

للمال الذي وهبه الله إياه ، فقال - تعالى - :

فَعَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ
خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم
مِّن رَّبًّا لَّا يَرْبُؤَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن
زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ
مِثْلَ ذَٰلِكُمْ مِّن شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

والخطاب في قوله - تعالى - : ذَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ . . . للنبي
(ﷺ) واكل من يصلح له من أمته .

والفاء : ترتيب ما بعدها على ما قبلها ،

والمعنى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم ، من أن بسط الأرزاق وقبضها
بيدي وحدي ، فأعط - أيها الرسول الكريم - ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ من المودة
والصلة والإحسان ، وليقتد بك في ذلك أمراءك وأتباعك .

وأعط - أيضاً - المسكين ، الذي لا يملك شيئاً ذا قيمة ، حقه من
الصدقة والبر ، وكذلك ذابن السبيل ، وهو المسافر المنقطع عن ماله في سفره ،
ولو كان غنياً في بلده .

وقدم - سبحانه - الأقارب ؛ لأن دفع حاجتهم واجب من الواجبات
التي جعلها - سبحانه - للقريب على قريبه .

قال القرطبي : « واختلف في هذه الآية فقيل : إنها منسوخة بآية المواريث .

وقيل : لانسح ، بل للقريب حق لازم فى البر على كل حال ، وهو الصحيح ، قال مجاهد وقتادة : صلة الرحم فرض من الله - عز وجل - ، حتى قال مجاهد : لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاجه . . . ، (١) .

وقال الجمل فى حاشيته : وعدم ذكر بقية الأصناف المستحقين للزكاة ، يدل على أن ذلك فى صدقة التطوع . وقد احتج أبو حنيفة - رحمه الله - بهذه الآية على وجوب نفقة المحارم ، والشافعى - رحمه الله - قاس سائر الأقارب - ما عدا الفروع والأصول - على ابن العم ؛ لأنه لا ولادة بينهم .

ثم قال : وهؤلاء الثلاثة يجب الإحسان إليهم وإن لم يكن الإنسان مال زائد ، لأن المقصود هنا : الشفقة العامة ، والفقير داخل فى المسكين . . . (٢) .

ثم بين - سبحانه - الآثار الطيبة المترتبة على هذا البر والعطاء فقال : ذلك خير الذين يريدون وجه الله ، وأرثك هم المفلحون . . .

أى : ذلك الإبتاء لهؤلاء الثلاثة ، خير وأبقى عند الله - تعالى - للذين يريدون بصدقتهم وإحسانهم وجه الله ، وأرثك المتصفون بتلك الصفات الحميدة هم المكاملون فى الفلاح ، والظفر بالخير فى الدنيا والآخرة .

وبعد أن حضمهم على صلة الأقارب والمساكين وابن السبيل ، نفرهم من تعاطى الربا فقال : وما آتيتكم من ربا يربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله . . .

والربا : الزيادة مطلقا . يقال : ربا الشيء يربو إذا زاد ونما ، ومنه قوله - تعالى - : دوتى الأرض هامة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . . . أى : زادت .

قال الآوسى م ما خصه : والظاهر أن المراد بالربا هنا : الزيادة المعروفة فى المعاملة التى حرمها الشارع .

(١) تفسير القرطبى ج ٤ ص ٣٥

(٢) حاشية الجمل على الجلايين ج ٢ ص ٣٩٤

ويشهد لذلك ماروى عن السدى ، من أن الآية نزلت في ربا ثقيف ، كانوا يرايون ، وكذلك كانت قريش تتعاطى الربا . . .

وعن ابن عباس وغيره : أن المراد به هنا العطية التى يتوقع بها مزيد مكافأة ، وعليه فتسميتها ربا مجاز ، لأنها سبب للزيادة . . . (١)

ويبدو لنا أن المراد بالربا هنا ، الربا الذى حرمه الله - تعالى - بعد ذلك تحريما قاطعا ، وأن المقصود من الآية التنفير منه على سبيل التدرج ؛ حتى إذا جاء التحريم النهائى له ، تقبلته نفوس الناس بدون مفاجأة لهذا التحريم . قال صاحب الكشف : هذه الآية في معنى قوله - تعالى - « يحق الله للربا ويرى الصدقات . . . سواء بسواء » يريد . وما أعطيتم أكلة الربا من ربا ليربو في ، أموالهم . أى : ليزيد ويزكو في أموالهم . فلا يركو عند الله ولا يبارك فيه . . . (٢)

ثم حض - سبحانه - على التصديق في سبيله فقال : « وما آتيتم من زكاة ، أى من صدقة تغربون بها إلى الله . و « تريدون » بأدائها وجه الله ، أى : رضاه وثوابه . . .

« فأولئك » الذين يفعلون ذلك « هم المضعفون » أى : ذوو الأضعاف المضاعفة من الثواب والعطاء الكريم . فالمضعفون جمع مضعف - بكسر العين - على أنه اسم فاعل من أضعف . إذا صار ذا ضعف - بكسر فسكون - كأقوى وأيسر . إذا صار ذا قوة ويصار .

وقال - سبحانه - : « فأولئك هم المضعفون » ، ولم يقل : فأنتم المضعفون . لأنه رجع من المخاطبة إلى الغيبة . كأنه قال للملائكة : فأولئك الذين يريدون وجهى بصدقاتهم هم المضعفون . فهو أمدح لهم من أن يقول : فأنتم المضعفون .

(١) تفسير الألوسى ج ٢١ ص ٤٥ .

(٢) تفسير الكشف ج ٣ ص ٤٨١ .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مظاهر فضله على الناس فقال : **« الله الذى خلقكم ، على غير مثال سابق »** ثم رزقكم ، من فضله بأنواع من الرزق الذى لا غنى لكم عنه فى معاشكم **« ثم يميتكم »** بعد انقضاء أعماركم فى هذه الحياة **« ثم يحييكم »** يوم القيامة للحساب والجزاء .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - : **« هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ »** للإنكار والنفي . أى : ليس من شركائكم الذين عبدتموم من يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك فكيف اتخذتموم آلهة وأشركتموم معى فى العبادة ؟ إن الله - تعالى - وحده هو الخالق وهو الرازق وهو المحبى وهو المميت .

« سبحانه وتعالى عما يشركون » ، أى : أنزه وتقدس عن شرك هؤلاء المشركين وعن جهل أولئك للجاهلین .

. . .

وبعد هذا التوجيه الحميم ، يسوق - سبحانه - الآثار للسبينة التى تترتب على المكفر والمعاصى . ويأمر بالاعتبار بالسابقين . ويبين عاقبة الأشرار وعاقبة الأخيار فيقول :

ظَهَرَ الْفَسَادُ

فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي
عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ
لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ
يَصُدُّ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ
يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۚ
إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾

قال ابن كثير ما ملخصه : قال ابن عباس وغيره : المراد بالبرها هنا .
الفيافي . وبالبحر : الأمصار والقرى . ما كان منها على جانب نهر .
وقال آخرون : بل المراد بالبر هو البر المعروف . وبالبحر : البحر
المعروف .

والقول الأول أظهر . وعليه الأكثر . ويؤيده ما ذكره ابن إسحاق في
السيرة : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صالح ملك أبلة . وكتب له
ببحره - يعني ببلده (١) .

والمعنى : ظهر الفساد في البر والبحر . ومن مظاهر ذلك انتشار الشرك والظلم

والقتل وسفك الدماء، والاحقاد والعدوان، ونقص البركة فى الزرع والثمار
والمطاعم والمشارب، وغير ذلك مما هو مفسدة وليس بمنفعة . .

قال ابن كثير - رحمه الله - : وقال أبو العالیه : من عصى الله فى الأرض
فقد أفسد فيها ، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ، ولهذا جاء فى الحديث
الذى رواه أبو داود : ه الخد يقام فى الأرض ، أحب إلى أهلها من أن
يمطروا أربعين صباحا . .

والسبب فى هذا أن الحدود إذا أقيمت ، ابتعد الناس ، أو أكثرهم ،
أو كثير منهم ، عن تعاطى المحرمات . وإذا ارتكبت المعاصى كان سببا فى محق
البركات . . . وكما أقيم العدل كثرت البركات والخيرات وقد ثبت فى الحديث
الصحيح : ه إن الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد والشجر
والدواب ، (١) .

وقوله - تعالى - : ه بما كسبت أيدي الناس . ، بيان لسبب ظهور الفساد .
أى : عم الفساد وطم فى البر والبحر ، بسبب اقتراف الناس المعاصى ،
وانهماكهم فى الشهوات ، وقفاتهم من كل ما أمرهم الله - تعالى - به ، أو نهاهم
عنه ، كما قال - تعالى - : ه وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو
عن كثير . .

فظهور الفساد وانتشاره ، لا يتم عبثا أو اعتباطا ، وإنما يتم بسبب
إعراض الناس عن طاعة الله - تعالى - ، وارتكابهم للمعاصى . .
ثم بين - سبحانه - ما ترتب على الوقوع فى المعاصى من بلاء واختباره
فقال : ه لينذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون . .
واللام فى ه لينذيقهم ، لتعليل وهى متعلقة بظهور . أى : ظهر الفساد . .

ليذيق - سبحانه - الناس نتائج بعض أعمالهم السيئة ، كي يرجعوا عن غيهم وفسقهم ، ويعودوا إلى الطاعة والتوبة .

ويحوز أن تكون متعلقة بمحذوف ، أى : عاقبتهم بانتشار الفساد بينهم ، ليجعلهم يحسون بسوء عاقبة الولوج في المعاصي ، ولعلمهم يرجعون عنها إلى الطاعة والعمل الصالح .

ثم يلفت - سبحانه - أنظار الناس إلى سوء عاقبة من ارتكس في الشرك والظلم ، فيقول : « قل سيرا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ، كان أكثرهم مشركين .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : سيروا في الأرض - سيرا المتأملين المختبرين ، لتروا بأعينكم ، كيف كانت عاقبة الظالمين من قبلكم . . .

لقد كانت عاقبتهم الدمار والهلاك ، بسبب إصرار أكثرهم على الشرك والكفر ، وانفاس فريق منهم في المعاصي والفواحش .

فالمراد بالسير ، ما يترتب عليه من عظات وعبر ، حتى لا تكون عاقبة اللاحقين ، كما عاقبة السابقين ، في الهلاك والنكال .

ثم أكد - سبحانه - ما سبق أن أمر به رسوله - صلى الله عليه وسلم - من ثبات على الحق فقال : « فاقم وجهك للدين القيم . . . أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لك - أيها الرسول الكريم - من سوء عاقبة الأشرار ، وحسن عاقبة الأخيار : فأنبت على هذا الدين القويم ، الذى أوحيناه إليك ، ولا تتحول عنه إلى جهة ما .

« من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ، أى : أنبت على هذا الدين للقيم ، من قبل أن يأتى يوم القيامة ، الذى لا يقدر أحد على رده أو دفع عذابه إلا الله - تعالى - وحده .

ثم بين - سبحانه - أحوال الناس في هذا اليوم فقال : « يومئذ يصدعون » .

أى : يتفرون وأصله يتصدعون ، فقلبت تاءه صاداً وأدغمت ،
والنصدع التفريق : يقال : تصدع القوم إذا تفرقوا ، ومنه قول الشاعر :
وكنا كندمانى جذيمة حقة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
أى : لن ينفردا .

والمعنى . اثبت على هذا الدين ، من قبل أن يأتى يوم القيامة ، الذى يتفرق
فيه الناس إلى فريقين ثم بين - سبحانه - الفريق الأول فقال . من كفر فعليه
كفره ، أى . من كفر من الناس ، فعاقبه كفره واقعة عليه لا على غيره ،
وسيعمل وحده ما يستحق على ذلك من عذاب مهين .

قال صاحب الكشف . قوله فعلية كفره ، كلمة جامعة لما لا غاية ورام
من المضار ، لأن من كان ضاره كفره ، فقد أحاطت به كل مضرة ، (١) .
ثم بين - سبحانه - الفريق الثانى فقال . ومن عمل صالحاً فلا يتهمهم بمهدون
أى . ومن عمل فى دنياه عملاً صالحاً ، فإنه بسبب هذا العمل يكون قد مد
وسوى لنفسه مكاناً مريحاً يستقر فيه فى الآخرة .

والمهاد : الفراش ومنه مهاد الصبي أى فراشه . ويقال مهدت الفراش مهداً
أى : بسطته ووطأته . ومهدت الأمور . أى . سويتها وأصلحتها .

فالجملة الكريمة تصوير بديع للشار الطيبة التى تترتب على العمل الصالح فى
الدنيا للدنيا ، حتى لمكان من يعمل هذا العمل ، يعد لنفسه فى الآخرة مكاناً
معبداً ، ومضجماً هنيئاً ، ينزل فيه وهو فى أعلى درجات الراحة والنعيم .
قال ابن جرير : قوله - تعالى - فلا يتهمهم بمهدون ، أى . فلا يتهمهم
بمعدون ، ويوون المضجع ، ليسلوا من عقاب ربهم ، وينجوا من عذابه ،
كما قال الشاعر :

أهد لنفسك ، حان السقم والتلف ولا تعين نفسك ما لها خلى (٢)

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٨٣

(٢) تفسير ابن جرير ج ٢١ ص ٢٣٣

ثم بين - سبحانه - ما اقتضته حكمته وعدالته فقال : ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله . إنه لا يحب الكافرين . .

أى : فعل ما فعل - سبحانه - من تقسيم الناس إلى فريقين . ليجزى الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات . الجزاء الحسن الذى يستحقونه . وليعطيهم العطاء الجزيل من فضله . لأنه يحبهم ، أما الكافرون فإنه - سبحانه - لا يحبهم ولا يرضى عنهم .

• • •

ثم تعود السورة الكريمة إلى الحديث عن آيات الله - تعالى - الدالة على قدرته ، وعن مظاهر فضله على الناس ورحمته بهم ، وعن الموقف الحجودى خلفه وقفة بعضهم من هذه النعم . . قال - تعالى - :

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ
وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ
فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا
نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ
فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ رِكَسًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ﴿٤٨﴾
وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَى
ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ
الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ
مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَلَا
تَسْمَعُ الصَّمَّ الدَّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى
عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِن تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

وقوله - سبحانه - : ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ، ، ، ،
بيان لأنواع أخرى من الظواهر الكونية الدالة على قدرته - عز وجل - .

أى : ومن الآيات والبراهين الدالة على وحدانية الله - تعالى - ونفاذ قدرته ، أنه - سبحانه - يرسل بعشيته وإرادته الرياح ، لتكون بشارة بأن من ورائها أمطارا ، فيها الخير الكثير للناس .

قال الألوسى : قوله : « ومن آياته أن يرسل الرياح ، أى : للجنوب ، ومهبها من مطلع سهيل إلى مطاع الثريا ، والصبأ : رممها من مطلع الثريا إلى بنات نعش . والشمال : ومهبها من بنات نعش إلى مسقط للبسر الطائر ، فإنها رياح الرحمة ، أما الدبور ومهبها من مسقط النسر الطائر إلى مطلع سهيل فريح العذاب ... » (١) .

وقوله : « ولينذقكم من رحمته ، ولنجرى الفلك بأمره ، ولتبتغوا من فضله ... » بيان للفوائد التى تعود على الناس من إرسال الرياح التى تعقبها الأمطار ، وهو متعلق بقوله « يرسل » .

أى يرسل الرياح مبشرات بالأمطار ويرسلها لينذركم من رحمته الخصب والنماء لزروعكم ، ولنجرى الفلك عندهم فيها فى البحر بأذنه - تعالى - ولتبتغوا أرزاقكم من فضله - سبحانه - عن طريق الأسفار ، والانتقال من مكان إلى آخر ، ولكم تشكروا الله - تعالى - على هذه النعم فإنكم إذا شكرتموه - سبحانه - على نعمه زادكم منها .

وقوله - تعالى - : « ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ... » كلام معترض بين الحديث عن نعمة الرياح . لتسليمية الرسول (ﷺ) عما لحقه من قومه من أذى .

أى ولقد أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - رسلا كثيرين ،

إلى قومهم ليهدوهم إلى الرشـد ، وجاء كل رسول إلى قومه بالحجج الواضحات التى تدل على صدقه .

وقوله : فانتقمنا من الذين أجرموا ، معطوف على كلام مخوف .
أى : أرسلناهم بالحجج الواضحات ، فن أقوامهم من آمن بهم ، ومنهم من كذبهم ، فانتقمنا من المكذبين أرسلهم .

«وكان حقاً علينا نصر المؤمنين، أى : وكان نصر المؤمنين حقاً أوجبناه على ذاتنا ، فضلاً منا وكرماً ، وتكريماً وإنصافاً لمن آمن بوحدانيتنا ، وأخلص للعبادة لنا .

وحقاً خبر كان ، ونصر المؤمنين إسمها وعليها متعلق بقوله حقاً .

قال ابن كثير قوله : «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين» هو حق أوجب على نفسه الكريمة ، تكرماً وتفضلاً ، كقوله : «كتب ربكم على نفسه الرحمة» .

وعن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ما من أمرى مسلم يرد عن عرض أخيه ، إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ، ثم تلا (ﷻ) هذه الآية ، (١) .

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى الحديث عن الريح وما يترتب عليها من منهف فتقول : «الله الذى يرسل الريح ، بقدرته ومشيبته .

«فتشير سحاباً ، أى : هذه الريح التى يرسلها الله - تعالى - فتحرك فى الجو وفق إرادته - سبحانه - فتحرك السحاب وتنشره من مكان إلى آخر .

«فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، أى فيبسطه الله - تعالى - هذا السحاب .

في طبقات الجو ، بالكيفية التي يختارها - سبحانه - ويريدها ، بأن يجعله تارة متكافئاً ، وتارة متناثراً ، وتارة من جهة الشمال ، وتارة من جهة غيرها .

« ويجعله كسفاً ، أى : ويجعله قطعاً بعضها فوق بعض تارة أخرى ، والمكسف : جمع كسفه ، وهى القطعة من السحاب .

« فترى الودق ، أى : المطر يخرج من خلاله ، أى يخرج ويتساقط من خلاله هذا السحاب ، ومن بين ذراته .

« فإذا أصاب به ، أى : بهذا المطر ، من يشاء ، إصابته به من عباده ، بأن ينزله على أراضيهم وعلى بلادهم » إذا هم يستبشرون ، أى : يفرحون بذلك ، لأنه يكون سبباً في حياتهم وحياة دوابهم وزروعهم .

وأعرف الناس بنعمة المطر ، أولئك الذين يعيشون في الأماكن البعيدة عن الأنهار كأهل مكة ومن يشبهونهم ممن تقوم حياتهم على مياه الأنهار .

ثم بين - سبحانه - حالهم قبل نزول تلك الأمطار عليهم فقال : « وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين » .

« وإن مخلفة من الثقلة ، واحمها ضمير الشأن المحذوف ، والضمير في « ينزل » يعود المطر ، وفي قوله « من قبله » يعود لنزول المطر - أيضاً - على سبيل التأكيد ، وقوله : « لمبلسين » خبر كان ، والإبلاس : اليأس من الخير والسكريت ، والإنكسار غمًا وحزنًا . يقال : أبلس الرجل ، إذا سكّ على سبيل اليأس والذل والإنكسار .

أى : هم عند نزول الأمطار يستبشرون ويفرحون ، ولو رأيت حالهم قبل نزول الأمطار لرأيهم في غاية الحيرة والقنوط والإبلاس ، لشدة حاجتهم إلى الغيث الذى طال إنتظارهم له ، وتطلعهم إليه دون أن ينزل .

قال صاحب الكشف وقوله : د من قبله ، من باب التكرير والنوكيد ، كقوله - تعالى - : فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها ، ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تظاول وبعد ، فاستحكم بأسهم وتمادى لإبلاهم ، فكان الاستبشار على قدر إغتمامهم بذلك ، (١) .

ثم لفت - سبحانه - أنظار الناس إلى ما يترتب على نعمة المطر من آثار عظيمة فقال : د فانظر إلى آثار رحمة الله . . . ، والفاء للدلالة على سرعة الانتقال من حالة اليأس إلى الاستبشار .

أى . فانظر - أيها العاقل - نظرة تفكر وانعاظ واستبصار ، إلى الآثار المترتبة على نزول المطر ، وكيف أن نزوله حول النفوس من حالة الحزن إلى حالة الفرح ، وجعل الوجوه مستبشرة بعد أن كانت عابسة يائسة .

وقوله - تعالى - : د كيف يحيى الأرض بعد موتها ، فى محل نصب على تقدير الخافض . أى : فانظر إلى آثار رحمة الله بعد نزول المطر وانظر وقامل كيف يحيى الله - تعالى - بقدرته ، الأرض بعد موتها بأن يجعلها خضراء يابنة ، بعد أن كانت جدباء قاحلة .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - د ان ذلك لمحى الموتى ، يعود على الله - تعالى - . أى : إن ذلك الإله العظيم الذى أحيا الأرض بعد موتها ، لقادر على إحياء الموتى ، إذ لا فرق بينهما بالنسبة لقدرة الله التى لا يعجزها شئ .

وهو ، - سبحانه - د على كل شئ قدير ، ومن جملة الأشياء المقدور عليها ، إحياء الموتى .

وهكذا يسبق القرآن الكريم الأدلة على البعث ، بأسلوب منطقى ، منزوع من واقع الناس ، ومن المشاهد التى يرونها فى حياتهم . وبعد ان صور - سبحانه - أحوال الناس عند رؤيتهم للرياح التى تنثير

السحب المحملة بالأمطار ، وأنهم عند رؤيتها يفرحون ويستبشرون بعد أن
صور ذلك بأسلوب بديع ، أتبع ذلك بتصوير حالهم عندما يرون ريحاً
يحمل لهم الرمال والأتربة ، وتضر بمزروعاتهم فقال - تعالى - ولئن
أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون .

والضمير في « رأوه » يعود إلى النبات المقهور من السياق .

أى : هذا حال الناس عند ما يرون الرياح التي تحمل لهم الأمطار ،
أما إذا أرسلنا عليهم ريحاً معها الأتربة والرمال ، فرأوا نباتهم وزروعهم قد
أصفرت واضمحلت وأصابها ما يضرها أو يهلكها . . فإنهم يظنون من بعد
إرسالها تلك الريح عليهم ، يكفرون بنعم الله ، ويحسدون آلامه السابقة ،
ويقابلون ما أرسلنا عليهم بالسخط والضيق ، لا بالاستسلام لقضائنا ،
وملازمة طاعتنا .

قال الآلوسى ما ملخصه : واللام قوله : « ولئن » مرططة للقسم دخلت على
حرف الشرط ، والفاء في « فرأوه » فصيحة ، واللام في قوله « لظلوا » لام
جواب القسم السادس مسد للجوابين ، والماضى بمعنى المستقبل .. وفيها ذكر
- سبحانه - من ذمهم على عدم تثبتهم ما لا يخفى ، حيث كان من الواجب
عليهم أن يتوكلوا على الله - تعالى - في كل حال ، ويلجأوا إليه بالاستغفار ،
إذا احتسب منهم المطر ، ولا يياسوا من روح الله - تعالى - ويبادروا إلى
الشكر والطاعة ، إذا أصابهم رحمته ، وأن يصبروا على بلائه إذا اعتري
زرعهم آفة ، فمكسوا الأمر ، وأبوا ما يجديهم ، وأنوا بما يؤذيهم ... (١)

ثم سلى - سبحانه - نبيه عما لحقه منهم من أذى بعد أن ذكر له جانباً من
من تقلب أحوالهم ، فقال - تعالى - : « فإنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع
الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين » .

أى : فاصبر — أيها الرسول — لحكم ربك ، واثبت على ما أنت عليه من حق ، فإنك لا تسمع الموتى ، إذا ناديتهم ، ولا تسمع الصم الدعاء ، إذا ما دعوتهم أو وعظتهم .

وقوله ، إذا ولوا مدبرين ، بيان لإعراضهم عن الحق ، بعد بيان كونهم كالأموات وكالصم .

ثم وصفهم بالعمى فقال : وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم ، بسبب فقدم الانتفاع بأبصارهم ، كما فقدوا الانتفاع ببصائرهم .

إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا ، أى : ما تستطيع أن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، فهم مسلمون ، أى : متقادون للحق ومتبعون له .

فآياتنا الكريمتان تسلية للرسول (ﷺ) مما أصابه من هؤلاء المشركين ، وعن إخفاق جهوده مع كثير منهم ، لانطماس أبصارهم ، حيث شبههم — سبحانه — بالموتى والصم والعمى ، في عدم انتفاعهم بالوعظ والإرشاد .

• • •

وبعد هذا التطواف فى أعماق الأنفس والآفاق . أخذت السورة الكريمة فى أواخرها ، تذكر الناس بمراحل حياتهم ، وبأحوالهم يوم القيامة ، وبفضائل القرآن الكريم ، وتأمير النبي (ﷺ) بالصبر والثبات . . . قال — تعالى — :

اللَّهُ

الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ
 مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾
 وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا
 يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي
 كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ
 لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ
 يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ
 وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾
 كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ
 وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

قال القرطبي ما ملخصه : قوله — تعالى — : « الله الذي خلقكم من ضعف »

ضعف ... استدلال آخر على قدرته — تعالى — ومعنى « من ضعف »

من نقطة ضعيفة ، أو في حال ضعف ، وهو ما كانوا عليه في الابتداء من

الطفولة والصغر ... وقرأ الجمهور بضم الصاد ، وقرأ عاصم وحزة بفتحها ،

والضعف — بالضم والفتح — خلاف القوة ، وقيل بالفتح فى رأى ،
وبالضم فى الجسد . . . (١) .

وقال — سبحانه — خلقكم من ضعف ، ولم يقل خلقكم ضعافا . .
للإشارة بأن الضعف هو مادتهم الأولى التى تتركب منها كيانهم ، فهو شامل
لتكوينهم الجسدى ، والعقلى ، والعاطفى ، والنفسى . . الخ .

أى : الله — تعالى — بقدرته ، هو الذى خلقكم من ضعف ترون
جانباً من مظاهره فى حالة طفولتكم وحدانته سنكم .

ثم جعل ، - سبحانه - من بعد ضعف قوة ، أى : ثم جعل لكم من
بعد مرحلة الضعف مرحلة أخرى تتمثل فيها القوة بكل صورها الجسدية
والعقلية والنفسية .

ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ، أى : ثم جعل من بعد مرحلة القوة ،
مرحلة ضعف آخر ، تعقبه مرحلة أخرى أشد منه فى الضعف ، وهى مرحلة
الشيب والهرم والشيخوخة التى هى أذل العمر ، وفيها يصير الإنسان
أشبه ما يكون بالطفل الصغير فى كثير من أحواله .

يخلق ، - سبحانه - ما يشاء ، خلقه ، وهو العليم ، بكل شئ .
القدير ، على كل شئ . .

فأنت ترى أن هذه الآية قد جمعت مراحل حياة الإنسان بصورها
المختلفة .

ثم بين - سبحانه - ما يقوله المجرمون عند ما يبعثون من قبورهم

لحساب فقال : و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ، .
والمراد بالساعة : يوم القيامة ، وسميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة
من عمر الدنيا ، أو لأنها تقع بغتة ، والمراد بقيامها : حصولها ووجودها ،
وقيام الخلائق في ذلك الوقت للحساب ، أى : وحين تقوم الساعة ؛ ويرى
المجرمون أنفسهم وقد خرجوا من قبورهم للحساب بسرعة ودهشة يقسمون
بأنهم ما لبثوا في قبورهم أو في دنياهم ، غير وقت قليل من الزمان .

قال ابن كثير : يخبر الله - تعالى - عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة
ففى الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأصنام ، وفى الآخرة يكون منهم اجهل
هظيم - أيضاً - فنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا فى الدنيا إلا ساعة واحدة ،
ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذروا بهم (١)
وقوله : . كذلك كانوا يؤفكون ، تدبيل قصد به به بيان ما جبلوا
عليه من كذب .

ويؤفكون من الأفك بمعنى الكذب ، يقال : أفك الرجل ، إذا صرف
عن الخير والصدق . أى : مثل هذا الكذب الذى تفوهوا به فى الآخرة كانوا
يفعلون فى الدنيا فهم فى الدارين لا ينفكون عن الكذب وعن اخلاق الباطل .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله أهل العلم والإيمان فى الرد عليهم : فقال :
« وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث . »

أى : وقال الذين أوتوا العلم والإيمان من الملائكة والمؤمنين الصادقين
فى الرد على هؤلاء المجرمين : لقد لبثتم فى علم الله وقضائه بعد مفارقتكم
الدنيا إلى يوم البعث ، أى : إلى الوقت الذى حدده - سبحانه - لبعثكم

والغناء فى قوله — تعالى — : فهذا يوم البعث ، هى الفصيحة ، أى : لأن كنتم منكرين للبعث ، فهذا يومه تشهدونه بأعينكم ، ولا تستطيعون إنكاره الآن كما كنتم تنكرونه فى الدنيا .

فالجملة الكريمة ، المقصود بها توبيخهم وتأييدهم على إنكارهم ليوم الحساب .

وقوله ، ولكنكم كنتم لا تعلمون ، زيادة فى تفريرهم ، أى : فهذا يوم للبعث مائل أمامكم ، ولكنكم كنتم فى الدنيا لا تعلمون أنه حق وصدق ، بل كنتم بسبب كفركم وعنادكم تستخفون به ، وبمن يحدثكم عنه ، فالיום تفرفرون سوء عاقبة إنكاركم له ، واستهزائكم به .

ولذا قال — سبحانه — بعد ذلك : د فيومئذ ، أى : فيوم أن تقوم الساعة ويقف الناس للحساب .

ولا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ، أى لا ينفعهم الاعتذار ، ولا يفيدهم عليهم بأن الساعة حق .

ولا هم يستعقبون ، أى : ولا هم يقبل منهم الرجوع إلى الله - تعالى - بالتوبة والعمل الصالح .

قال الآلوسى : والاعتتاب : طلب العتبى ، وهى الاسم من الاعتاب ، بمعنى إزالة العتب ، أى : لا يطلب منهم إزالة عتب الله - تعالى - وغضبه عليهم ، لأنهم قد حق عليهم العذاب . . . (١) .

ثم بين — سبحانه — موقفهم من القرآن الكريم ، وأنهم لم اتبعوا توجيهاته لنجوا من العذاب الممين ، فقال — تعالى — : ولقد ضربنا

للناس في هذا القرآن من كل مثل

أى : « وبالله لقد ضربنا للناس في هذا القرآن العظيم ، وكل مثل حكيم ، من شأنه أن يهdy القلوب إلى الحق ، ويرشد النفوس إلى ما يسعدها .

« ولئن جتسم بآية ، أى ولئن جئت — أيها الرسول — هؤلاء المشركين بآية بينة تدل على صدقك فيما تبلغه عن ربك .

« ليقولن ، على سبيل التناول والتبجح ، إن أنتم إلا مبطلون ، أى : ما أنتم إلا متبعون للباطل أيها المذمنون بما يدعوكم إليه الرسول (ﷺ) ثم يعقب — سبحانه — على هذا التناول والغرور بقوله : « كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ، ، والطبع : الحتم على الشيء حتى لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخل فيه ما هو خارج عنه .

أى : مثل هذا الطبع العجيب ، يطبع الله — تعالى — على قلوب هؤلاء الذين لا يعلمون ، ولا يعلمون على إزالة جهلهم ، لنوهمهم أنهم ليسوا بجهلاء ، وهذا أسوأ أنواع الجهل ؛ لأنه جهل مركب ، إذ صاحبه يجهل أنه جاهل . فهو كما قال الشاعر :

قال حمار الحكيم قوما لو أنصفوني لكانت أركب

لأننى جاهل بسيط وصاحبى جاهل مركب

ثم ختم — سبحانه — السورة الكريمة ، بأمر النبى (ﷺ) بالصبر على هؤلاء الجاهلين ، فقال : « فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخلفك الذين لا يوقنون . .

أى : إذا كان الأمر كما وصفنا لك من أحوال هؤلاء المشركين ، فاصبر

على أذاهم ، وعلى جهالاتهم ، فإن وعد الله - تعالى - بنصرك عليهم حق لا شك فى ذلك .

ولا يستخفك ، أى : ولا يزعجك ويحملك على عدم الصبر ، الذين لا يوقنون بصحة ما تنلو عليهم من آيات ، ولا بما تدعوهم إليه من رشد وخير .

وهكذا حتمت السورة الكريمة بالوعد بالنصر ، كما افتتحت بالوعده ، للمؤمنين الصادقين . وعد الله لا يخلف الله وعده وإن كان أكثر الناس لا يعلمون .

وبعد : فهذه هى سورة الروم ، وهذا تفسير محررها ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعنا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة : مدينة نصر كتبه الراحى عفوره

الحبيب : ٢٣ من رجب سنة ١٤٠٥ هـ محمد سيد طنطاوى .

١٣ من مارس سنة ١٩٨٥ م

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة	٧٥
١	ألم ..	٨٢
٨	أولم يتفكروا فى أنفسهم ..	٨٨
١١	الله يبدأ الخلق ثم يعيده ..	٨٦
١٧	فسبحان الله حين تمسون ..	٩٤
٢٨	ضرب لكم مثلا ..	٩٨
٢٣	وإذا مس الناس ضر ..	١٠٤
٢٨	فأت ذا القرنى حقه ..	١١٥
٤١	ظهر الفساد فى البر والبحر ..	١١٩
٤٦	ومن آياته أن يرسل ..	١١٥
٥٤	الله الذى خلقكم من ضعف ..	١٣١

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سُورَةُ لقمان

الدكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي الديار المصرية

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١ - سورة لقمان هي السورة الحادية والثلاثون في ترتيب المصحف، أما ترتيبها في النزول فهي السورة السادسة والخمسون من بين السور المكية، وكان نزولها بعد سورة الصافات (١) :

وعدة آياتها : أربع وثلاثون آية . وقد ذكر الإمام ابن كثير وغيره أنها مكية ، دون أن يستثنى شيئا منها .

وقال الألوسي ما ملخصه : أخرج ابن الضريس ، وابن مردويه ، عن ابن عباس أنه قال : أنزلت سورة لقمان بمكة . . وفي رواية عنه : أنها مكية إلا ثلاث آيات تبدأ بقول - تعالى - : « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام » (٢)

٢ - وتبدأ السورة الكريمة ، بالثناء على القرآن الكريم ، وعلى المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون .

ثم تنتقل إلى الحديث عن جانب من صفات المشركين ، الذين يستهزئون بآيات الله - تعالى - ، ويعرضون عنها ، « وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبرا كان لم يسمعها كان في أذنيه وقرا ، فبشره بعذاب أليم » .

ثم ساق أدلة متعددة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، قال - تعالى - : خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بك ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون في ضلال مبين .

(١) راجع الإنفاق في علوم القرآن ج ١ ص ٢٧ مبحث المسكن والمدن .

(٢) تفسير الألوسي ج ٢١ ص ٦٤

٣ — ثم قص علينا - سبحانه - تلك الوصايا الحكيمة ، التي أوصى بها لقمان ابنه ، والتي اشتملت على ما يهدى إلى العقيدة السليمة ، وإلى الأخلاق الكريمة ، وإلى مراقبة الخالق - عز وجل - وإلى أداء العبادات التي كلفنا - سبحانه - بها .

ومن هذه الوصايا قوله - سبحانه - : « يا بني أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصمر خدك الناس ، ولا تمس في الأرض مرجاً ، إن الله لا يحب كل مختال فخور . وأقص في مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير . »

٤ — ثم بين - سبحانه - ألواناً من نعمه على عباده ، منها ما يتعلق بخلق السموات ، ومنها ما يتعلق بخلق الأرض ، كما بين - عز وجل - أن علمه محيط بكل شيء . وأنه لا نهاية له . . .

قال - تعالى - : « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ، إن الله سميع بصير . »

٥ — ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بدعوة للناس جميعاً إلى تقواه - عز وجل ، وإلى بيان الأمور الخمسة التي لا يعلمها إلا هو - سبحانه - فقال :
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَارْجِعُوا إِلَى الْوَالِدِ وَالْوَالِدُ مِنْكُمْ أَعْلَمُ بِالَّذِي تَعْبُدُونَ ، وَلَا تُولَدُوا مِنْ دُونِ الْوَالِدِ شَيْئاً ، وَإِنْ عَدَّ اللَّهُ حَقّاً ، فَلَا تَغْرِبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ .
إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير .

٦ — هذا ، والمتأمل في هذه السورة الكريمة ، يراها قد خاطبت النفس البشرية ، بما من شأنه أن يسهلها ويحييها حياة طيبة .
لأنها قد بينت أوصاف المؤمنين الصادقين ، وأوصاف أعدائهم : وبينت

عاقبة الأخيار وعاقبة الأشرار ، ووضحت تلك الوصايا الحكيمة التي أوصى بها لقمان ابنه وأحب الناس إليه ، وسأقت أنواعا من النعم التي أنعم بها - سبحانه - على عباده ، وبينت أن هناك أموراً لا يعلمها إلا الله - تعالى - وحده .

وقد سأقت السورة مسافات من هدايات ، بأسلوب بليغ مؤثر ، يرضى المرء طاف ، ويهدي العقول . .

نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا .
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

٢٠ من رجب ١٤٠٥ هـ - ٢٠ / ٤ / ١٩٨٦ م كتبه الراجي عفوره
هـ . محمد سيد طنطاوى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 أَلَمْ يَكُنْ مِنْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُدًى وَرَحْمَةً
 لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
 بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
 هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤﴾

سورة لقمان من السور التي بدأت ببعض حروف التهجى . .
 وقد فصلنا القول في معانيها ، عند تفسير السور : البقرة ، وآل عمران ،
 وغيرهما .

وقلنا في نهاية مردنا لأقوال العلماء في ذلك : د ولعل أقرب الأقوال إلى
 الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في افتتاح بعض
 السور ، للإشعار بأن هذا القرآن الذي تحدى الله به المشركين ، هو من جنس
 الكلام المركب من هذه الحروف التي يعرفونها . فإذا عجزوا عن الإنيان
 بسورة من مثله ، فذلك لبلوغة في الفصاحة والحكمة ، مرتبة يقف فصحاؤهم
 وبلغاؤهم دونها بمراحل . .

واسم الإشارة في قوله - سبحانه - : د تلك آيات الكتاب الحكيم ، يعود
 إلى آيات القرآن الكريم ، ويندرج فيها آيات السورة التي معنا .
 والمراد بالكتاب : القرآن الكريم على الصحيح . لأنه هو المتحدث عنه .
 قال الألوسي : وأما حمله على الكتاب التي خلت قبل القرآن . . فهو غاية
 للبعد ، (١) والحكيم - بزنة فاعيل - مأخوذ من الفعل حكيم بمعنى منع تقول :
 حكمت الفرس ، إذا وضعت الحكمة في فها لمنعها من الجروح والضرود .

والمقصود ، أن هذا القرآن يمنع أن يتطرق إليه الفساد ، ومبرا من الخلل والتناقض والاختلاف .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى وصف الكتاب بكونه حكيمًا وجوه منها أن الحكيم هو ذو الحكمة ، بمعنى اشتغاله على الحكمة ، فيكون الوصف للنسبة كلابن وقامر ، ومنها أن الحكيم بمعنى الحاكم ، بدليل قوله - تعالى - : « وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » ، ومنها أن الحكيم بمعنى المحكم . . . أى المبرأ من الكذب والتناقض ، (١) .

والمعنى : تلك الآيات السامية ، المنزلة عليك يا محمد ، هى آيات الكتاب ، المشتمل على الحكمة والصواب ، المحفوظ من كل تحريف أو تبديل ، الناطق بكل ما يوصل إلى السعادة الدنيوية والأخروية .

وصحت الإشارة إلى آيات الكتاب مع أنها لم تكن قد نزلت كلها لأن الإشارة إلى بعضها كالإشارة إلى جميعها ، حيث كانت بصدد الإنزال ، ولأن الله - تعالى - قد وعد رسوله - صلى الله عليه وسلم - بنزول القرآن عليه ، كما فى قوله - تعالى - : « إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً » ، ووعد الله - تعالى - لا يتخلف .

وقوله « هدى ورحمة » منصوبان على الحالية من « آيات » .

أى : هذا الكتاب أنزلناه عليك يا محمد آياته ، ليكون هداية ورحمة للمحسنين فى أقوالهم وفى أفعالهم ، وفى كل أحوالهم .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء المحسنين ، بصفات كريمة فقال : « الذين يقيمون الصلاة » ، أى : يؤدونها فى أوقاتها المحددة لها ، مستوفية لواجباتها ، وسقتها ، وآدابها وخشوعها ، فإن الصلاة التامة هى تلك التى يصحبها الإخلاص ، والخشوع ، والآداء الصحيح المطابق لما ورد عن النبى - صلى الله عليه وسلم - .

« ويؤتون الزكاة ، أى : يعطون الزكاة التى أوجبها الله — تعالى — فى أموالهم لمستحقها ، وهم بالآخرة هم يوقنون ، والمراد بالآخرة : الدار الآخرة ، وسميت بذلك لأنها تأتى بعد الدنيا التى هى الدار الدنيا .

وقوله « يوقنون » من الإيقان ، وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع . بحيث لا يطرأ عليه شك ، ولا تحوم حوله شبهة . .

أى : أن من صفات هؤلاء المحسنين ، أنهم يؤدون الصلاة بخشوع وإخلاص ، ويقدمون زكاة أموالهم لمستحقها ، وهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب ، يوقنون إيقاناً قطعياً ، لا أثر فيه للادعاءات الكاذبة ، والأوهام الباطلة .

وفى إيرادهم ، قبل لفظ الآخرة ، وقبل لفظ يوقنون : تعريض بغيرهم ، من كان اعتقادهم فى أمر الآخرة غير مطابق للحقيقة أو غير بالغ مرتبة اليقين .

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك الثمار الطيبة التى ترتبت على تلك الصفات الكريمة ، فقال — تعالى — : « وأولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

والمفلحون : من الفلاح وهو الظفر والفوز بدرك البغية . وأصله من الفلاح - بسكون اللام - وهو الشق والقطع ، ومنه فلاحه الأرض وهو شقها للحرث ، واسمه عمل منه للفلاح فى الفوز ، كأن الفائز شق طريقه وفلحه ، للوصول إلى مبتغاه ، أو انفتحت له طريق الظفر وانفتحت .

والمعنى : أولئك المتصفون بما تقدم من صفات كريمة ، على هداية عظيمة من ربهم توصيهم إلى المطلوب ، وأولئك هم الفائزون بكل مرغوب .

والتنكير فى قوله « على هدى » ، للتعظيم ، وأتى بلفظ « على » ، للإشارة إلى التمكين والرسوخ ؛ ووصفه بأنه « من ربهم » ، لأنه — سبحانه — هو الذى وفقهم إليه ، ويمر لهم أسبابه .

ثم بين - سبحانه - حال طائفة أخرى من الناس ، كانوا على النقيض من من سابقهم فقال :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ

عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۚ وَالَّذِى فِي الْأَرْضِ رَوٰسِىٓ أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَاتَّزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات أشهرها : أنما نزلتا فى المنصر بن الحارث ، اشترى قينة - أى : مغنية - ، وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطاق به إلى قينته ، فيقول لها : أطعميه وأسقيه وغنيه ، فهذا خير مما يدعوك إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه (١) .

و هو الحديث : باطلة ، ويطلق على كل كلام يلهي القلب ، ويشغله عن طاعة الله - تعالى - ، كالفناء ، والملاهي ، وما يشبه ذلك مما يصد عن ذكر الله - تعالى - .

وقد فسر كثير من العلماء بالفناء والأفضل تفسيره بكل حديث لا يثمر خيرا .

و من ، في قوله : ومن الناس ، للتبويض . أى : ومن الناس من يترك القول الذى ينفعه ، ويشتري الأحاديث الباطلة ، والخرافات الفاسدة .

قال القرطبي ما ملخصه : هذه إحدى الآيات التى استدل بها العلماء على كراهة الفناء والمنع منه .

ولا يختلف في تحريم الفناء الذى يحرك النفوس ، ويبثها على الفل والمجون

فأما ما سلم من ذلك ، فيجوز القليل منه في أوقات الفرح ، كالمرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان في حفر الخندق .. (١)

وقوله : ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزا . . . ، تعليل لاشتراء هو الحديث . والمراد بسبيل الله - تعالى - : دينه وطريقه الذى اختاره لعباده .

وقد قرأ الجمهور : ليضل ، - بضم الياء - أى : يشتري هو الحديث ليضل غيره عن صراط الله المستقيم ، حالة كونه غير عالم به . وعاقبة ما يفعله ، ولكن يتخذ آيات الله - تعالى - مادة لسخريته واستهزائه .

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٥٤ وراجع تفسير الألوسى ج ٢١ ص ٦٧ وما بعدها .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ، ليضل ، — بفتح الباء — فيكون المعنى :
يشترى لهو الحديث إزداد وهو خافى ضلاله .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : القراءة بالضم بيته . لأن المضركان
غرضه باشتراء اللهو ، أن يصد الناس عن الدخول فى الإسلام واستماع
القرآن ، ويضلهم عنه ، فما معنى القراءة بالفتح ،

قلت : فيه معنيان ، أحدهما : ليثبت على ضلاله الذى كان عليه ، ولا يصدق
عنه ، ويزيد فيه ويمد ، فإن المخدول كان شديد الشكيمة فى عداوة الدين وصد
الناس عنه . والثانى : أن يوضع ليضل موضع ليضل ، من قبل أن من أضل
كان ضالا لا محالة ، فدل بالرديف على المردوف . . . (١) .

وقوله : د أولئك لهم عذاب ممين ، بيان لسوء عاقبة من يؤثر الضلالة
على الهداية .

أى : أولئك الذين يشترى لهو الحديث ، ليصرفوا الناس عن دين الله
— تعالى — ، وليستهمزوا بآياته ، لهم عذاب يمينهم وبذلهم ، ويجعلهم
محل الاحتقار والهوان .

ثم فصل — سبحانه — حال هذا الفريق الذى فقال : د إذا تتلى عليه ،
أى : على المضمر وأمثاله ، الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدق
نبيينا — صلى الله عليه وسلم — .

د ولي مستكبرا ، أى : أعرض عنها بغير روى واستعلاء .

« كأن لم يسمعها ، أى : كأن حاله فى استكباره عن سماع الآيات ، كحال الذى لم يسمعها إطلاقاً .

« كأن فى أذنيه وقراً ، أى : كأن فى أذنيه صمماً وثقلاً ومرطناً يحول بينه وبين السماع .

والجملتان الكريمتان حال من قوله مستكبراً ، والمقصود بهما توبيخ هذا الشقى وأمثاله ، وذمهم ذماً موجعاً لإعراضهم عن الحق .
وقوله — تعالى — : « فبشره بعذاب أليم » ، تهكم به ، واستخفاف بتصرفاته .

أى : فبشر هذا الشقى الذى اشترى لهُ الحديث ، وأعرض عن آياتنا بالعذاب الأليم ، الذى يناسب غروره واستكباره .

ثم أكدت السورة الجزاء الحسن الذى أعده الله — تعالى — للمؤمنين ، وذكر جانباً من مظاهر قدرته — سبحانه — ، ورحمته بعباده ، فقال — تعالى — :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم

أى : إن الذين آمنوا بالله — تعالى — إيماناً حقاً ، وعملوا الأعمال للصالحات ، لهم ، فى مقابلة ذلك ، جنات النعيم ، أى : لهم جنات هائلة يتمتعون فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

« خالدون فيها » ، خلوداً أبدياً ، وعد الله حقاً ، أى : هم خالدون فى تلك للجنات خلوداً أبدياً ، فقد وعد الله وهذا حقاً بذلك ، ووعدوه حق وصدق ، وإن يخلفه — سبحانه — تفضلاً منه وكرماً .

قال الجمل . وقوله « وعد » مصدر مؤكّد لنفسه ، لأنّ قوله « ولهم جنات النعيم » فى معنى وعدهم الله ذلك . وقوله « حقاً » مصدر مؤكّد لفعله . أى : لمضمون تلك الجملة الأولى . وطاملهما مختلف ، فتقدير الأولى : وعد الله ذلك وعداً . وتقدير الثانية ، وحقه حقاً ، (١) .

وقوله - تعالى - : « وهو العزيز الحكيم » ، أى : وهو - سبحانه - العزيز الذى لا يغلبه غالب . الحكيم فى كل أفعاله وتصرفاته .

ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر قدرته وهزته وحكمته فقال : « خلق السموات بغير عمد ترونها . . . » .

والعمد : جمع عماد . وهو ما تقام عليه القبة أو البيت . وجملة ترونها ، فى محل نصب حال من السموات .

أى هو - سبحانه - وحده ، الذى رفع هذه السموات الهائلة فى صنعها وفى ضخامتها ، بغير مستند يحندها . وبغير أعمدة تعتمد عليها . وأنتم ترون ذلك بأعينكم بدون لبس أو خفاء . ولا شك أن خلقها على هذه الصورة من أكبر الأدلة على أن لهذا الكون خالقاً مدبراً قادراً حكماً هو المستحق للمعبادة والطاعة .

وقوله - تعالى - : « وألقى فى الأرض رواسى أن يمتد بهم » ، بيان لنعمة ثمانية مما أنعم به - سبحانه - على عباده .

والرواسى : جمع راسية . والمراد بها الجبال الشامخ الثابتة .

أى : ومن رحمته بكم ، وفضله عليكم ، أن ألقى - سبحانه - فى الأرض

جبالا ثوابت كراهة أن تيمد وتضطرب بكم ، وأنتم عليها .

• وبث فيها من كل دابة ، أى : وأوجد ونشر في الأرض التى تعيشون فوقها ، من كل دابة من الدواب التى لا غنى لكم عنها . والتى فيها منفعتكم . ومصلحتكم .

والبث : معناه : النشر والتفريق . يقال : بث القائد خيله إذا نشرها وفرقها .

ثم بين — سبحانه — نعمة ثلاثة فقال : • وأنزلنا . أى : بقدرتنا • من السماء ماء ، أى : ماء كثيرا هو المطر . • فأنبثنا فيها ، أى : فأنبثنا في الأرض بسبب نزول المطر عليها . • من كل زوج ، أى : صنف ، كريم ، أى حسن جميل كثير المنافع .

والإشارة في قوله : • هذا خلق الله . . . ، تعود إلى ما ذكره — سبحانه — من مخلوقات قبل ذلك . والحق بمعنى المخلوق .

أى : هذا الذى ذكرناه لكم من خلق السموات والأرض والجبال . . . هو من مخلوقنا وحدنا ، دون أن يشاركنا فيما خلقناه مشارك .

والفاء في قوله — تعالى — : • فأروني ماذا خلق الذين من دونه ، واقعة في جواب شرط مقدر ، أى : إذا علمتم ذلك فأروني وأخبروني ، ماذا خلق الذين اتخذتموهم آلهة من دونه — سبحانه — لأنهم لم يخلقوا شيئا ما ، بل هم مخلوقون لله — تعالى —

فالمنصود بهذه الجملة للكرامة تحدى المشركين : وإثبات أنهم في عبادتهم لغير الله ، قد تجاوزوا كل حد في الجهالة والضلالة .

وقوله - سبحانه - : « بل الظالمون فى ضلال مبين ، اضراب عن قبيحتهم
وتوبيخهم ، إلى تسجيل الضلال الواضح عليهم .

أى : بل الظالمون فى ضلال بين واضح ، لأنهم يعبدون آلهة لا تضر
ولا تنفع ، ويتركون عبادة الله - تعالى - الخلاق العليم .

ثم ساق - سبحانه - على لسان عبد صالح من عباده ، جملة من الوصايا
الحكيمة ، لتكون دظة وعبرة للناس ، فقال تعالى :

وَلَقَدْ آتَيْنَا

لُقْمَنَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ
كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ
يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ
بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُ الْهُمْلَى فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي
وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ
مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

يُبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾
يُبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾
وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْظُضْ مِنْ صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

قال ابن كثير - رحمه الله - : اختلف للسلف في لقمان ، هل كان نبيا أو عبدا صالحا من غير نبوة ؟ والاكثرون على أنه لم يكن نبيا .

وعن ابن عباس وغيره : كان لقمان عبدا حبشيا نجارا . . .

قال له مولاه : أذبح لنا شاة وجنتي بأخيبت ما فيها ؟ فذبحها وجاءه بلسانها وقلها . ثم قال له مرة ثانية : أذبح لنا شاة وجنتي بأحسن ما فيها ؟ فذبحها وجاءه - أيضا - بقلبها ولسانها ، فقال له مولاه ما هذا ؟ فقال لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، وليس من شيء أخبث منهما إذا خبثا .

وقال له رجل : ألسنت عبد فلان فما الذي بلغ بك ما أرى من الحكمة ؟ فقال لقمان : قدر الله وأداء الأمانة ، وصديق الحديث ، ونزي

حالا يعينى، (١) .

ومن أقواله لا بنه : يا بنى اتخذ تقوى الله لك تجارة ، يأنك الربح من غير بضاعة .

يا بنى ، لا تكن أعجز من هذا الديك الذى يصوت بالأسحار ، وأنت غائم على فراشك .

يا بنى ، اعتزل الشر كيما يعز لك ، فإن الشر للشر خلق .

يا بنى ، عليك بمجالس العلماء ، وبسماع كلام الحكماء ، فإن الله - تعالى - يحبى القلب المبت بنور الحكمة . .

يا بنى ، إنك منف نزلت الدنيا استدبرنها ، واستقبلت الآخرة ، ودار أنت إليها تسير ، أقرب من دار أنت عنها ترحل . . (٢) .

وقال الألوسى ماملخصه : واقمان : اسم أعجمى لا عربى وهو ابن باهوراء . قيل : كان فى زمان داود - عليه السلام - ، وقيل : كان زمانه بين عيسى وبين محمد - عليهما الصلاة والسلام - .

ثم قال الألوسى : وإنى أختار أنه كان رجلا صالحا حكيما ، ولم يكن نبيا ، (٣) .

وقوله - سبحانه - : ولقد آتينا لقمان الحكمة . . . كلام مستأنف مسوق

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٢٦

(٢) راجع حاشية المجل على الجلالين ج ٢ ص ٥٠٢ .

(٣) تفسير الألوسى ج ٢١ ص ٨٧ .

لإبطال الإشراف بالله - تعالى - عن طريق النقل ، بعد بيان لإبطاله عن طريق العقل ، في قوله - سبحانه - قبل ذلك : وهذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه

والحكمة : اكتساب العلم النافع والعمل به . أوهى : العقل والفهم . أوهى الإصابة في القول والعمل . .

والعنى : والله لقد أعطينا - بفضلنا وإحساننا - عبدنا لقمان العلم النافع والعمل به .

وقوله - سبحانه - « أن اشكر لله » ، بيان لما يقتضيه إعطاء الحكمة : أى : آتينا الحكمة وقلنا له أن اشكر الله على ما أعطاك من نعم لكى يزيدك منها .

قال الشوكاني : قوله : « أن اشكر لله » ، أن هى المفسرة ، لأن فى إيتاء الحكمة معنى القول . وقيل التقدير : قلنا له أن اشكر لى .. وقيل : بأن اشكر لى فشكر ، فكان حكيما بشكره .

والشكر لله : الثناء عليه فى مقابلة النعمة - واستعمالها فيما خلقت له - وطاعته فيما أمر به (١) .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة الشكر وسوء عاقبة الجحود فقال : ومن يشكر فأنا بشار لنفسه ، ومن كفر فإن الله غنى حميد . .

أى : ومن يشكر الله - تعالى - هى نعمه . فإن نفع شكره إنما يعود إليه ومن جحد نعم الله - تعالى - واستحب الكفر على الإيمان . فافهم - تعالى - غنى

عنه وعن غيره ، تحقيق بالحمد من سائر خلقه لإتمامه عليهم بالنعم التى لا تعد ولا تحصى : فحميد بمعنى محمود .

فإنجلى الكريمة المقصود بها ، بيان غنى الله - تعالى - عن خلقه ، وعدم إلتفاده بطاعتهم ، لأن متفعتها راجعة إليهم ، وعدم تضرره بمعصيتهم ، وإنما ضرر ذلك يعود عليهم .

وعبر - سبحانه - فى جانب الشكر بالفعل المضارع ، للإشارة إلى أن من شأ الشاكرين أنهم دائماً على تذكر لنعم الله - تعالى - ، وإذاماغفلوا عن ذلك لفقره من الوقت ، عادوا إلى طاعته - سبحانه - وشكره .

وعبر فى جانب الكفر بالفعل الماضى ، للإشعار بأنه لا يصح ولا ينبغي من أى عاقل ، بل كل عاقل عليه أن يهجر ذلك هجراً تاماً ، وأن يجعله فى خير كان .

وجواب الشرط محذوف ، وقد قام مقامه قوله - تعالى - : « فإن الله غنى حميد » . والتقدير : ومن كفر فضرر كفره راجع إليه ، لأن الله - تعالى - غنى حميد .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله لقمان لابنه على سبيل النصيحة والإرشاد فقال - تعالى - : « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه ، يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك أعظم عظيم » .

وقوله « يعظه » ، من الوعظ ، وهو الزجر المفترن بالتهويل . وقيل : هو التذكير بوجوه الخير بأسلوب يرق له القلب .

قالوا : واسم ابنة « ثاران » أو « ماثان » . . أى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتنتفع ، وقت أن قال لقمان لابنه وهو يعظه ، ويرشده إلى وجوه الخير باللفظ مباركة : يا بني « لا تشرك بالله » - تعالى - « لاني عبادتك ، ولاني قولك ، حولاً فى عملك ، بل أخلص كل ذلك لخالقك - عز وجل - » .

وفي نداءه بالفظد يابنى ، لإشفاق عليه ، ومحبة له ، فالمراد بالتصغير إظهار
الحنو عليه ، والحرص على منفعتة .

قيل : وكان ابنه كافرا فآزال بعظه حتى أسلم . وقيل : بل كان مسلما ،
والنهي عن الشرك المقصود به الدوامه على ما هو عليه من إيمان وطاعة
لله رب العالمين .

وجملة : إن الشرك أعظم عظيم ، تعليل للنهي . أى : يابنى حذار أن تشرك
بأقته في قولك أو فعلك ، إن الشرك بأقته - تعالى - أعظم عظيم ، لأنه وضع للأمور
في غير موضعها الصحيح ، وتسوية في العبادة بين الخالق والمخلوق .

وقوله - تعالى - : « ووصينا الإنسان بوالديه .. » كلام مستأنف ، جرى به
على سبيل الاعتراض في أثناء وصية لقمان لابنه ، إيمان بسمو منزلة الوالدين ،
ولأن القرآن كثيرا ما يقرن بين الأمر بوحداية الله - تعالى - ، والأمر
بالإحسان إلى الوالدين .

ومن ذلك قوله - تعالى - : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه .
وبالوالدين إحسانا .. » (١) .

وقول - عز وجل - : « قل تعالوا أقبل ما حرم ربكم عليكم ، أن لا تشركوا به
شيئا ، وبالوالدين إحسانا .. » (٢) .

أى : أمرنا كل إنسان أن يكون بارا بأبويه ، وأن يحسن إليهما ، وأن
يطيع أمرهما في المعروف .

ثم بين - سبحانه - ما بذلته الأم من جهد بوجوب الإحسان إليهما فقال :
« حملته أمه وهنا على وهن ، أى : حملته أمه في بدنها وهي تزداد في كل يوم

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣

(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٣

ضعفا على ضعف ، بسبب زيادة وزنة ، وكبر حجمه ، وتعرضها لآلوان من التعب خلال حملها ووضعها .

والوهن : الضعف . يقال : وهن فلان يهن وهنا . إذا ضعف وانفقد . وهنا ، حال من أمه بتقدير مضاف . أى : حملته أمه ذات وهن ، أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال . أى : يهن وهنا . وقوله : د على وهن ، متعلق بمحذوف صفة المصدر . أى : وهنا كائنا على وهن .

وقوله : وفصاله فى عامين ، بيان لمدة إرضاعه . والفصال : الفطام عن الرضاع .

أى : فطام المولود عن الرضاعة يتم بانقضاء عامين من ولادته ، كما قال — تعالى — : « والوالدات برضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة . . . » (١) .

وهاتان الجملتان « حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين ، جاء تابعد الوصية بالوالدين هموما . تأكيداً لحق الأم . ويابا لما تبذله من جهد شاق فى سبيل أولادها ، تستحق ، من أجله كل رعاية وتكريم وإحسان قال صاحب الكشف : فإن قلت : فقوله : « حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين ، كيف اعترض به بين المفسر والمفسر ؟

قلت : لما وصى بالوالدين : ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب فى حملها وفصاله هذه المدة المتطاولة ، إيجاباً للتوصية بالوالدة خصوصاً وتذكيراً بحقها العظيم مفرداً ، ومن ثم قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لمن قال له : من أبر ؟ قال أمك ثم أمك ثم أمك ، ثم قال بعد ذلك ، ثم أباك ، (٢) .

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٣

(٢) تفسير الكشف ج ٣ ص ٤٩٤

وقوله - سبحانه - : « أن اشكر لي ولو الديك إلى المصير » بيان لما تستلزمه الوصية بالوالدين أي : وصينا الإنسان بوالديه حسنا ، وقلنا له : اشكر لخالقك فضله عليك ، بأن تخلص له العبادة والطاعة ، واشكر لوالديك ما حملاه من أجلك من تعب ، بأن تحسن إليهما ، واعلم أن مصيرك إلى خالقك - عز وجل - وسيجزيك على أعمالك ، وسيجازيك عليها بما تستحقه من ثواب أو عقاب .

ثم بين - سبحانه - حدود الطاعة للوالدين فقال : « وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما . . . »

والجمل الكريمة معطوفة على قوله : « ووصينا . . » بإضمار القول . أي : ووصينا الإنسان بوالديه . وقلنا له : « وإن جاهدك ، أي : وإن حملاك » على أن تشرك بي ، في العبادة أو الطاعة ، « ما ليس لك به علم فلا تطعهما » في ذلك ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وجملة « ما ليس لك به علم » لبيان الواقع ، فلا مفهوم لها ، إذ ليس هناك من إله يعلم سوى الله - عز وجل - .

ثم أمر - سبحانه - بمصاحبتهم بالمعروف حتى مع كفرهما فقال : « وصاحبهما في الدنيا معروفا . »

أي : إن حملاك على الشرك . فلا تطعهما ، ومع ذلك فصاحبهما في الأمور الدنيوية التي لا تتعلق بالدين مصاحبة كريمة حسنة ، يرتضيها الشرع ، وتقتضيها مكارم الأخلاق .

وقوله « معروفا » صفة لمصدر محذوف . أي : صحابا معروفا . أو منصوبا بنزع الخافض . أي : المعروف

ثم أرشد - سبحانه - إلى وجوب إتباع أهل الحق فقال : « واتبع حبييل من أناب إلى . . . »

أى : واتبع - أيها العاقل - طريق الصالحين من عبادى ، الذين رجعوا
إلى بالتوبة والإنابة والطاعة والإخلاص .

ثم إلى مرجعكم ، جميعاً يوم القيامة - أيها الناس - فأنبئكم بما كنتم
تعملون ، فى الدنيا ، وأجازى كل إنسان على حسب عمله : فمن يعمل مثقال
خبرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

قال القرطبى ما ملخصه : وهاتان الآيتان نزلتا فى شأن سعد بن أبى وقاص
لما أسلم ، وأن أمه حلفت أن لا تأكل طعاماً حتى تموت .. فهما دليل على
صلة الأبوين الكافرين ، بما أمكن من المال متى كانا فقيرين .. وقد قالت أسما
بنت أبو بكر للصدىق ، النبى - صلى الله عليه وسلم - وقد قدمت عليها خالتها
وقيل : أمها من الرضاة : يا رسول الله ، إن أمى قدمت على وهى راغبة
أفصلها ؟ قال : نعم ، وراغبة قبل معناه : من الإسلام ، أو راغبة فى الصلة (١)
ثم ذكر - سبحانه - بقية الوصايا التى أوصى بها لقمان لابنه فقال : يا بني
إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتسكن فى صخرة ، أو فى السموات ، أو
فى الأرض ، يأت بها الله . . .

الضمير فى قوله : إنها ، يعود إلى الفعلة التى يفعلها من خير أو شر .
و . تلك ، مجزوم بسكون النون المحذوفة ، وهو فعل للشرط ، والجواب
يأت بها الله . . . والمثقال : أقل ما يوزن به الشيء . والخردل : فى غاية
الصغر والدقة .

والمعنى : يا بني إن ما تفعله من حسنة أو سيئة ، سواء أكان فى نهاية القلة
أو الصفر ، كمثل حبة من خردل ، وسواء أكان هذا الشيء القليل محبوباً فى

(١) تفسير القرطبى ج ١٤ ص ٦٥

صخرة من الصخور الملقاة في لجج الأرض ، أم كانتا في السموات أم في الأرض ، فإن الله - تعالى - يعلمه ويحضره ويجازي عليه ، إن الله - تعالى - لطيف خبير ، أى : محيط بجميع الأشياء جليلها وحقيقها ، عظيمها وصغيرها .

فالمقصود من الآية الكريمة ، غرس الهيبة والخشية والمراقبة لله - تعالى - لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شيء في هذا الكون ، مهادق وقل وتفتى في أعماق الأرض أو السماء .

وشبه هذه الآية قوله - تعالى - : : ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أثينا بها ، وكفى بنا حاسبين ، (١) .

ثم أمره بالمحافظة على الصلاة وبالامر بالمعروف ، وبالنهي عن المنكر وبالصبر على الأذى ، فقال : يا بني أقم الصلاة ، أى : واظب على أدائها في أوقاتها بخشوع وإخلاص لله رب العالمين .

وأمر بالمعروف ، أى بكل ما حض الشريعة على فعله وإنه من المنكر ، أى : من كل ما نهى الشريعة عن قوم أو فعله .

وأصبر على ما أصابك ، من الأذى ، فإن الحياة مليئة بالشدائد والمحن والراحة إنما هي في الجنة فقط .

وعزم الأمور : أعاليها ومكاريها . أو المراد بها ما أوجبه الله - تعالى - على الإنسان .

قال صاحب الكشف: «إن ذلك، مما عزمه الله من الأمور، أى: قطعه قطع لإيجاب وإلزام... ومفه الحديث: «إن الله يحب أن يؤخف برخصه كما يحب أن يؤخف بعزائمه»، ومنه عزومات الملوك، وذلك أن يقول الملك لبعض من نعت يده، عزمت عليك إلا فعلت كذا، فإذا قال ذلك لم يكن للمعزوم عليه بد من فعله، ولا منهوحة في تركه.

وناهيك بهذه الآية مؤذنة بقدوم هذه الطاعات، وأنها كانت مأموراها في سائر الأمم، وأنها الصلاة لم تزل عظيمة للشأن، سابقة التقدم على ما سواها، (١).

ثم نهاء عن التكبر والغرور والتعالى على الناس فقال: «ولا تصمر خدك للناس...»

والصمر في الأصل: مرض يصيب البعير فيجعله معوج العنق، والمراد به هنا، التكبر وإحتقار الناس، ومنه قول الشاعر:

وكنا إذا الجبار صمر خده مشينا إليه بالسيف نعاثه

أى: ولا تمل صفحة وجهك عن الناس، ولا تتعالى عليهم كما يفعل المتكبرون والغرورون، بل كن هينا لنا متواضعا، كما هو شأن العقلاء...

«ولا تمش في الأرض مرحا» أى: ولا تمش في الأرض مشية المختالين المعجبين بأنفسهم... و«مرحا» مصدر وقع موقع الحال على سبيل المبالغة، أو هو مفعول مطلق لفعل محذوف أى: تمرح مرحا. والجملة في موضع الحال. أو مفعول لأجله. أى: من أجل المرح.

وقوله : « إن الله لا يحب كل مختال فخور ، تعليل للنهي . والمختال : المتكبر الذي يختال في مشيته ، ومنه قولهم : فلان يمشي الخيلاء : أى يمشي مشية المفرور المعجب بنفسه .

والفخور : المتباهى على الناس بماله أو جاهه أو منصبه .. يقال فخر فلان - فخره - فهو فخور وفخور ، إذا تفاخر بما عنده على الناس ، على سبيل التناول عليهم ، والتفقيص من شأنهم .

أى : إن الله - تعالى - لا يحب من كان متكبرا على الناس ، متفاخرا بماله أو جاهه .

ثم أمر بالقصد والإعتدال في كل أموره فقال : « وأقصد في مشيك ، وأى : وكن معتدلا في مشيك ، بحيث لا تبطىء ولا تسرع . من القصد وهو المتوسط في الأمور .

« وأخفض من صوتك ، أى : وأخفض من صوتك فلا ترفعه إلا إذا استدعى الأمر رفعه ، فإن غرض الصوت عند المحادثة فيه أدب وثقة بالنفس ، واطمئنان إلى صدق الحديث وإسقامته

وكان أهل الجاهلية يتفاخرون بجمارة الصوت وإرتفاعه ، فنهى المؤمنون عن ذلك ، ومدح - سبحانه - الذين يخفضون أصواتهم في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال : « إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم ،

وقوله - تعالى - : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ، تعليل للأمر بخفض الصوت ، وللنهي عن رفعه بدون موجب .

أى : إن أقرب الأصوات وأبشعها طوى لصوت الحمير ، فالجمله للكرامة حض على خفض الصوت بأبلغ وجه وأكده : حيث شبه - سبحانه - الرافعين

لأصواتهم فى غير حاجه إلى ذلك ، بأصوات الخمر التى هى مثار السخرية مع الغرور منها .

وهكذا نجد أن لقمان قد أوصى ابنه بحملة من الوصايا السامية النافعة ، فقد أمره - أولا - بإخلاص العبادة لله - تعالى - ثم غرس فى قلبه الخوف من الله - عز وجل - ، ثم حض على إقامة الصلاة ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى الصبر على الأذى ، ثم نهاه عن الغرور والتكبر والافتخار وعن رفع الصوت بدون مقتضى لذلك .

وبتففيذ هذه الوصايا ، يسعد الأفراد ، وترقى المجتمعات .

* * *

ثم ذكر - سبحانه - بعض النعم التى أنعم بها على الناس ، ودعا المنحرفين عن الحق إلى ترك المجادلة بالباطل ، وإلى مخالفة الشيطان ، فقال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾

والخطاب فى قوله - تعالى - : : ألم تروا أن الله - سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض . . : ، لأولئك المشركين الذين استحبوا العمى على الهدى ،

واشكروا لهو الحديث ليضلوا غيرهم عن طريق الحق .

وسخر : من السخبر ، بمعنى التذليل والتكليف ، يقال : سخر فلان فلانا تسخيراً ، إذا كلفه عملاً بلا أجره . والمراد به هنا : الإعداد والتهيئة لما يراد الإلتفات به .

والاستفهام لتقرير الواقع وتأكيده . أى : لقد رأيتم — أيها الناس — وشاهدتم أن الله - تعالى - سخر لمنفعتكم ومصلحتكم ما فى السموات من شمس وقر ونجوم . . . وما فى الأرض من زرع وأشجار وحیوانات وجبال . . . وما دام الأمر كذلك فاشكروا الله - تعالى - على هذا التسخير ، وأخلصوا له العبادة والطاعة .

وقوله — تعالى — : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، معطوف على ما قبله .

وقوله : « وأسبغ » بمعنى ألم وأكمل عليكم نعمه يقال هذا ثوب سابغ إذا كان تاماً وافياً .

ويقال : سبغت للنعمه سبوغاً - من باب قعد - إذا قاضت وانسعت .

وقوله : « نعمه » جمع نعمة : وهى ما ينفع به الإنسان ويستلذه من الحلال .

والنعمة الظاهرة : هى النعمة المشاهدة المحسوسة كنعمة السمع والبصر وحسن الهيئة والمال ، والجاه ، وما ينفى ذلك عما يراه الإنسان ويشاهده .

والنعمة الباطنة : هى النعمة الخفية التى يحمد الإنسان أثرها فى نفسه دون أن يراها . كنعمة الإيمان بالله - تعالى - وإسلام الوجه له - عز وجل - ، والاتجاه إلى مكارم الأخلاق ، والبعد عن رذائلها وسفاسفها .

وفى تفسير النعم للظاهرة والباطنة أقوال أخرى ، ترى أن ما ذكرناه

أو جهها وأجسمها (١) .

ثم بين - سبحانه - ما عليه بعض الناس من جدال بالباطل فقال : ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ، ولا هدى ، ولا كتاب منهج .

وقوله : « يجادل » من الجدال بمعنى المفاوضة على سبيل المخاصمة والمنازعة والمغالبة . مأخوذ من جدلت الحبل ، إذا أحكمت قتله ، فكان المتجادلين يحاول كل واحد منهما أن يقوى رأيه ، ويضعف رأى صاحبه . والمراد من المجادلة في الله : المجادلة في ذاته وصفاته وتشريعاته . . .

وقوله « بغير علم » حال من الفاعل في « يجادل » ، وهى حال موضحة نقلاً تشعر به المجادلة هنا من الجهل والعناد .

أى : ومن الناس قوم استعول عليهم الجهل والعناد ، لأنهم يجادلون ويمازحون في ذات الله ، وفي صفاته ، وفي وحيه ، وفي تشريعاته ، .. بغير مستند من علم عقلى أو نقلى ، وبغير « هدى » يهديه ويرشده إلى الحق ، وبغير « كتاب منهج » أى : وبغير وحي ينير عقله وقلبه ، ويوضح له صلب الرشد .

فأنت ترى ، أن الآية الكريمة قد جردت هذا المجادل ، من أى مستند يستند إليه في جداله ، سواء أكان هذا المستند عقلياً أم نقلياً ، بل أثبتت له للجهالة من كل الجهات .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المجادلين بالباطل ، لم يكتفوا بذلك ، بل أضافوا إلى رذائلهم السابقة رذائل أخرى منها العناد والتقليد الأعمى ، فقال : وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله . . .

أى : وإذا قيل لهؤلاء المجادلين بالباطل اتبعوا ما أنزل الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - من قرآن كريم ، ومن وحي حكيم .

« قالوا، على سبيل العناد والتقليد الأعمى، بل نقبح ما وجدنا عليه آباءنا»
من عبادة الأصنام والأوثان، والسير على طريقتهم التي كانوا يسهرون
عليها.

وقوله — سبحانه — : «أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير»
رد عليهم، وبيان لبطلان الاعتماد في العقيدة على مجرد تقليد الآباء.

والهمزة للاستفهام الإنكارى، والواو للحال. أى : أينعمون ما كان
عليه آباؤهم، والحال أن هذا الاتباع هو من وحى الشيطان الذين يقودهم
إلى ما يؤدى إلى عذاب السعير.

قال الألوسى : وفي الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر.
وأما اتباع الغير في الدين بعد العلم بدليل ما أنه محق، فاتباع في الحقيقة لما
أنزل — تعالى — وليس من التقليد المقصود في شيء، وقد قال — سبحانه — :
« فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (١).

ثم فصل — سبحانه — بعد ذلك حسن هاقبة الأخيار، وسوء عاقبة
الأشرار الذين لا يحسنون التدبر في أنفسهم، أو فيما حولهم، فقال :
— تعالى — :

وَمَنْ يُسَلِّمْ

وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

وقوله — تعالى — « ومن يسلم وجهه لله وهو محسن ، أى : ومن يتجه إلى الله — تعالى — ويذعن لأمره ، ويخلص له العبادة ، وهو محسن فى أقواله وأعماله .

من يفعل ذلك ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، والعروة فى أصل معناها : تطلق على ما يتعلق بالشئ من هراة ، أى من الجهة التى يجهه تعليقها منها ، وتجمع على عرا .

والعروة من الدلو مقبضه ، ومن الثوب : مدخل ذره .

والوثنقى : ثابث الاوثق ، وهو الشئ المحكم الموثق . يقال : وثق

— بالضم — وثاقه ، أى : قوى وثبت فهو وثيق ، أى : ثابت محكم .

والمعنى : ومن يسلم لأمر الله - تعالى - ، ويأتى بالأقوال والأفعال .
على وجه حسن ، فقد ثبت أمره ، واستقام على الطريقة المثلى ، وأمسك
من الدين بأقوى سبب ، وأحكم رباط .

فقد شبه - سبحانه - المتوكل عليه في جميع أموره ، المحسن في أفعاله
بمن ترقى في حبل شاقق ، وتدلّى منه ، فاستمسك بأوثق عروة ، من حبل
متين مأمون انقطاعه .

وخص - سبحانه - الوجه بالذكر ، لأنه أكرم الأعضاء وأعظمها
حرمة ، فإذا خضع الوجه الذي هو أكرم الأعضاء ، فغيره أكثر خضوعاً .
وقوله : « وإلى الله عاقبة الأمور ، أى : وإلى الله - تعالى - وحده
تصير الأمور ، ونرجع إليه ، وتخضع لحكمه وإرادته .

وقوله - تعالى - : « ومن كفر فلا يحزنك كفره . . . تسلياً للرسول
(ﷺ) ، مما أصابه من حزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم .

أى : ومن استمر - أيها الرسول - على كفره بعد أن بلغته رسالتنا
ودعوتنا ، فلا يحزنك بعد ذلك بقاؤه على كفره وضلاله ، فأنت عليك
البلاغ ، ونحن علينا الحساب ، وإنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي
من يشاء .

وقوله - سبحانه - : « إلينا مرجعهم ، فننبئهم بما عملوا . . . بيان
لسوء مصيرهم .

أى : إلينا وحدنا مرجع هؤلاء الكافرين ، فنخبرهم بما عملوه في الدنيا
من أعمال سيئة ، ونجازيهم عليها بما يستحقونه من عقاب .

« إن الله ، - تعالى - ، عليم ، علماً تاماً ، بذات الصدور ، أى :
بمكنونات الصدور وخفاياها .

« نمتهم قليلاً ، فى هذه الحياة الدنيا . أى نمتهم نمتيماً قليلاً فى ديارهم ،
بأن نعطهم الأموال والأولاد على سبيل الاستدراج .

« ثم نعطهم إلى طاب غليظ ، أى نعطهم فى حياتهم القصيرة ما يمتعون
به من مال وصحة . . ثم نلجئهم وندفعهم دفعاً يوم القيامة إلى عذاب مروع
خطيع ، لضخامة ثقله ، وشدة وقعه .

والتعبير بقوله : « نمتهم قليلاً ، يشعر بأنى ما يمتعون به من مال وخيره
فى هذه الحياة ، هو قليل فى ذاته ، زهيد فى قيمته ، بالنسبة لما ينتظرهم
من عذاب شديد .

والمراد بالاضطرار : الإلجاء والقسم والإلزام ، أى : أنهم لا يستطيعون
التفكك أو الانفكاك عن هذا العذاب الذى أعد لهم .

ووصف - سبحانه - العذاب بالغلظ ، ازياة تهويله وشدته ، فهو
ثقل عليهم ثقل الأجرام الضخمة التى تهوى على رأس الانسان ، فنشل
حركاته وتهلكه .

ثم بين - سبحانه - ما كان عليه هؤلاء الكافرون من تناقض بين
تأقراهم وأفعالهم فقال : « ولئن سألتهم ، - أيها الرسول الكريم - ، من
خلق السموات والأرض ، وأوجدتهما على هذا النظام فلبدين .

« ليقولن ، فى الجواب ، الله ، أى : الله - تعالى - هو الذى خلقهما
وهو الذى أوجدتهما .

« قل الحمد لله ، أى : قل - أيها الرسول الكريم - الحمد لله - تعالى -
بوحده ، حيث اعترفتم بأن خالقهما هو الله ، وما دام الأمر كذلك ،

فكيف أشركتم معه في العبادة غيره ؟ إن قولكم هذا الذي تؤبدونه الفطرة ،
ليتنافى مع ما أنتم عليه من كفر وضلال .

وقوله - سبحانه - : بل أكثرهم لا يعلمون ، إضراب عن أقوالهم
إلى بيان واقعهم ، أى : بل أكثرهم لا يعلمون الحقائق علماً سليماً ، وإنما
هم يقولون بالسننهم ، ما يتباين تبانياً تاماً مع أفعالهم ، وهذا شأن
الجاهلين ، الذين انطمست بصائرهم .

ثم بين - سبحانه - ما يدل على عظيم قدرته ، وشمول ملكه فقال :
« لله ما فى السموات والأرض » .

أى : لله - تعالى - وحده ، ما فى السموات وما فى الأرض ، خلقه
وملكه وتصرفاً .

« إن الله هو الغنى ، عن كل ما سواه » الحميد ، أى : المحمود من أهل
الأرض والسماء ؛ لأنه هو الخالق لكل شئ ، والرازق لكل شئ .

• • •

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على شمول علمه ، ونفاذ
قدرته ، فقال - سبحانه - :

وَلَوْ أَتَمَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمَ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ
 بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾
 مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ
 تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ
 وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾
 ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ
 هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ
 اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾
 وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَظُلُومٍ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ
 إِلَى الْبَرِّ فَنَسُوا مَوَاقِدَهُمْ وَمَا يَحْجِدُوا بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

قال ابن كثير : قال قتادة . قال المشركون : إنما هذا كلام بوشك أن
 ينفذ ، فقال - تعالى - ، ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام . . .

وعن ابن عباس أن أحبار يهود قالوا للنبي (ﷺ) : رأيت قولاك :
 « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، إيانا تريد أم قومك ؟ فقال (ﷺ) :
 كلا هنيئ . فقالوا : ألسنت نزلت فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها
 بيان لكل شيء ؟ فقال (صلى الله عليه وسلم) : إنما في علم الله

قليل ، وعندكم من ذلك ما يكفيكم ، وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك :
« ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام . . . (١) » .

و « لو » شرطية ، وجوابها « نفدت كلمات الله . . » و « من » فى قوله « من شجرة » ، للبيان ، ، وفى الآية للكريمة كلام محذوف يدل عليه السياق .
والمعنى : ولو أن مافى الأرض من أشجار تحولت بصورتها وفروعها إلى أقلام ، ولو أن البحر - أيضا - تحول إلى مداد لتلك الأقلام ، وأمد هذا البحر بسبعة أبحر أخرى ، وكتبت بتلك الأقلام ، وبذلك المداد كلمات الله التى يحيط بها علمه - تعالى - . .

لنفدت الأقلام ، ولنفد ماء البحر ، لتمام كل ذلك ، وما نفدت كلمات الله - تعالى - ولا معلوماته ، لعدم تمامها .

« إن الله - تعالى - عزيز ، لا يهره شيء » ، ولا يغلبه غالب « حكيم » فى كل أقواله وأفعاله .

فآية الكريمة المقصود منها بيان أن علم الله - تعالى - لانهائية له ، وأنه مشيته لا يقف أمامها شيء ، وكلماته لا أول لها ولا آخر .

وقال - سبحانه - « من شجرة » ، بالإنفراد ، لأن المراد تفصيل الفجر واستقصاؤه شجرة فشجرة ، حتى لا تبقى واحدة من أنواع الأشجار إلا وتحولت إلى أقلام .

وجمع - سبحانه - الأقلام ، للتكثير ، أى : أقلام كثيرة يصعب عدّها .
والمراد بالبحر : للبحر المحيط بالأرض ، لأنه المتبادر من التعريف ، إذ هو الفرد السامى .

وإنما ذكرت السبعة بعد ذلك على وجه المبالغة دون إرادة المحصر ، وإلا فلو اجتمعت عشرات البحار ما نفدت كلمات الله .

(١) نفسه ابن كثير ج ٦ ص ٣٥٢ .

قال صاحب الكشف فإن قلنا : مقتضى الكلام أن يقال : ولو أن
الشجر أقلام ، والبحر مداد ؟ قلت : أغنى عن ذكر المداد قوله ويمده ، لأنه
من قولك : مد الدواة وأمدها . جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة ، وجعل
البحر السبعة ملوثة مدادا ، فهي تصب فيه مدادها أبدا صبا لا ينقطع .
فإن قلت : الكلمات جمع قلة ، والموضع موضع التكثير لا التقليل ، فهلا
قيل : كلم الله ؟

قلت : معناه أن كلمائه لا تنق بكنايتها البحار فكيف بكلمه ؟ (١)
وقال الألوسى : والمراد بكلمائه - تعالى - كلمات هله - سبحانه -
وحكمته . وقيل : المراد بها : مقدوراته وعجائب خلقه ، والتي إذا أراد
- سبحانه - شيئا منها قال له : د كن فيكون ، (٢) .
ثم أتبع - سبحانه - ذلك ببيان نفاذ قدرته فقال : وما خلقكم ولا بعثكم
إلا كنفس واحدة . . .

أى : ما خلقكم - أيها الناس - جميعا ، ولا بعثكم يوم القيامة ، إلا كنفس
نفس واحدة أو بعثا ، لأن قدرته - عز وجل - يتساوى معها القليل
والكثير ، والصغير والكبير ، قال - تعالى - : إنما أمره إذا أراد شيئا
أن يقول له كن فيكون . . .

وقال - سبحانه - : وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر . .
وإن الله ، - تعالى - ، سميع ، لـكل شيء ، عليم ، بأحوال خلقه لا يخفى
عليه شيء منهم .

• • •

(١) تفسير الكشف ٣٥ ص ٥١

(٢) تفسير الألوسى ٢١٥ ص ١٠٠

ثم ذكر - سبحانه - الفاس بجانب من مظاهر قدرته ونعمه عليهم،
لكي يخلصوا له العبادة والطاعة ،

والاستفهام في قوله - سبحانه - : « ألم تر أن الله يولج الليل في النهار .. »
للتقرير . والخطاب لكل من يصلح له ليعتبر ويتعظ ، ويخلص العبادة لله
- تعالى - .

وقوله « يولج » من الإيلاج بمعنى الإدخال . يقال : ولج فلان منزله ،
إذا دخله ..

ثم استعمل لزيادة زمان النهار في الليل وعكسه ، بحسب المطالع .

أى : لقد رأيت وشاهدت - أيها العاقل - أن الله - تعالى - يدخل
الليل في النهار ، ويدخل النهار في الليل ، ويزيد في أحدهما وينقص من
الآخر ، على حسب مشيئته وحكمته .

أنه - سبحانه - « سخر الشمس والقمر .. » أى : ذللهما وجعلهما
لخدمة الناس ومصلحتهم ، كما جعلهما يسيران هما والليل والنهار ، بنظام
بديع لا يتخلف .

وقوله : « كل يجري إلى أجل مسمى » ، أى : كل من الشمس والقمر
يجريان في مدارهما بنظام ثابت محكم ، إلى الوقت الذى حدده - سبحانه - لنهاية
سيرهما ، وهو يوم القيامة قال ابن كثير : قوله : « إلى أجل مسمى » ، قيل :
إلى غاية محددة .

وقيل : إلى يوم القيامة ، وكلا المعنيين صحيح . ويستشهد للقول الأول
بحديث أبى ذر الذى في الصحيحين ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :

يا أباذر ، أتدرى أين تذهب هذه الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأذن ربها ، فيوشك أن يقال لها : « أرجعى من حيث جئت » (١) .

وقال الجمل : قوله : « إلى أجل مسمى » ، قاله هنا بلفظ « إلى » ، وفى سورتي فاطر والزمر ، بلفظ « لأجل » ، لأن ما هنا وقع بين آيتين داليتين على غاية ما ينتهى إليه الخلق ، وهما قوله : « ما خلقكم ولا بمشكم... الآية » . وقوله : « اتقوا ربكم واخفوا يوما... الآية » ، فناسب هنا ذكر « إلى » الدالة على الانتهاء ، وما فى فاطر والزمر خالى عن ذلك ، إذ ما فى فاطر لم يذكر مع ابتداء خلق ولا انتهائه ، وما فى الزمر ذكر مع ابتدائه ، فناسب ذكر اللام ، والمعنى : يجرى كل كما ذكر لبلوغ أجل مسمى » (٢) .

وجملة « وأن الله بما تعملون خبير » معطوفة على لقوله : « أن الله يولج... » أى : لقد علمت أن الله - تعالى - قد فعل ذلك ، وأنه - سبحانه - خبير ومطلع على كل عمل تعملونه - أيها الناس - دون أن يحفى عليه شئ منها .

واسم الإشارة فى قوله : « ذلك بأن الله هو الحق... » يعود إلى ما تقدم ذكره من إبلاج الليل فى النهار ، وتسخير الشمس والقمر . وهو مبتدأ . وقوله : « بأن الله هو الحق ، خبره . والباء للسببية .

أى : ذلك الذى فعلناه سببه ، أن الله - تعالى - هو الإله الحق ، الذى لا إله سواه ، وأن ما يدعون من دونه ، من آلهة أخرى هو الباطل ، الذى لا يصح أن يسمى بهذا الاسم ؛ لأنه مخلوق زائل متغير ، لا يضر ولا ينفع . ثم ذكر - سبحانه - الناس بنعمة أخرى من نعمه التى لا تحصى فقال :

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٥٢ (٢) حاشية الجمل ج ٢ ص ٤٠٩
(م ١٢ - لقمان)

« ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته . . . »

أى : ولقد علمت - أيضا - وشاهدت - أيها العاقل - حال السفن ، وهي تجري في البحر ، بمشيئة الله وقدرته ، وبلطفه ورحمته وإحسانه ، لبطونكم على بعض آياته الدالة على باهر قدرته ، وسمو حكمته وسابغ نعمته .
« إن في ذلك ، الذي شاهدتموه وانتفعتم به من السفن وغيرها ، دلائل واضحة على قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده ، لكل حيار ، أى : لكل إنسان كثرة الصبر ، وشكور ،

أى : كثير الشكر لله - تعالى - على نعمه ورحمته .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أحوال الناس عندما تعيط بهم المصائب وهم في وسط البحر فقال : « وإذا غصهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين . . »

وقوله « غصهم » من الغصاء بمعنى : الغطاء . فقال غشى الظلام المكان ، إذا حل به وأصل « الموج » الحركة والازدحام ، ومنه قولهم : ما ج البحر إذا اضطرب وارتفع مائه . والظلل : جمع ظلة - كغرفة وغرف - ، وهى ما أطل غمره من سحاب أو جبل أو غيرهما .

أى : وإذا ماركب الناس في السفن ، وأحاطت بهم الأمواج من كل جانب ، وأوشكت أن تعلمهم وتغطيتهم . . في تلك الحالة لجأوا إلى الله - تعالى - وحده ، يدعونه بإخلاص وطاعة وتضرع ، أن ينجيهم مما هم فيه من بلاء . . .

« فلما نجاهم » - سبحانه - بفضلته وإحسانه ، وأوصلهم إلى البر ، انقسموا إلى قسمين ، أما القسم الأول ، فقد هرب عنه - سبحانه - بقواه : فمنهم مقتصد -

أى : فمنهم من هو مقتصد ، أى : متوسط فى عبادته وطاعته ، يعيش حياته بين الخوف والرجاء .

قال ابن كثير . قال ابن زيد . هو المتوسط فى العمل . ثم قال ابن كثير وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله - تعالى - : : ثم أورثنا الكتاب للذين اصطفينا من عبادنا ، فهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ، فالمقتصد ههنا هو المتوسط فى العمل ، ويحتمل أن يكون مراداً هنا - أيضاً - ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال ، والأمور العظام ، والآيات الباهرات فى البحر ، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص ، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل القام ، والمبادرة إلى الخيرات ، فن اقتصد بعد ذلك كله مقصراً ، والحالة هذه ، (١) .

وأما القسم الثانى فقد عبر عنه - سبحانه - بقوله : وما يجمع بآياتنا إلا كل ختار كفور ، .

والختار : من ختر ، وهو أبشع وأقبح الغدر والخديعة . يقال : فلان خاتر وختار وختير ، إذا كان شديد الغدر والنقص لعهوده ، ومنه قول الشاعر :

وإنك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدر وخفر

والكفور : هو الشديد الكفران والجحود لنعم الله - تعالى - .

أى : وما يجمع بآياتنا الدالة على قدرتنا ورحمتنا ، إلا من كان كثير النقص لعهودنا ، شديد النسكران لنعمتنا .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بدعوة الناس إلى الاستعداد ليوم الحساب وإلى مراقبة الله - تعالى - فى كل أحوالهم لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شيء منها ، فقال :

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ
وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا^ج إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ
وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ
غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ^ج إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

والمعنى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم ، بأن تطيعوه ولا تعصوه ، وبأن
تذكروه ولا تكفروه ، « واخشوا يوماً ، أى : وخافوا أهوال يوم عظيم

« لا يجزى والد عن ولده ، أى : لا يستطيع والد أن ينفع ولده بشئ
من النفع في هذا اليوم ، أو أن يقضى عنه شيئاً من الأشياء .

« ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، أى : ولا يستطيع المولود
— أيضاً — أن يدفع عن والده شيئاً مما يحتاجه منه

وخس — سبحانه — الوالد والمولود بالذكر ؛ لأن رابطة المحبة
والمرودة بينهما هي أقوى الروابط وأوثقها ، فإذا انتفى النفع بينهما في هذا
اليوم ، كان انتفاؤه بالنسبة لغيرهما من باب أولى .

وقوله : « إن وعد الله حق ، أى : إن ما وعد الله — تعالى — به
عباده من البعث والحساب والثواب والعقاب ، حق وثابت ثبوتاً لا يقبل
الشك أو التخلف .

وما دام الأمر كذلك ، فلا تغربكم الحياة الدنيا ، أى : فلا نخدعنكم بالحياة الدنيا بزخارفها وشهواتها ومتعتها ، ولا تشغلناكم عن طاعة الله تعالى -- ، وعن حسن الاستعداد لهذا اليوم المآل الشديد ، فإن الكبير الفطن هو الذى يتزود لهذا اليوم بالإيمان الحق ، وبالعمل الصالح النافع . ولا يغربكم بالله الغرور ، أى : ولا يعرّفكم الشيطان عن طاعة الله ، وعن أمثال أمره .

فالمراد بالغرور : للشيطان ، أو كل ما يعرّفك عن طاعة الله تعالى -- :

قال الألوسى : ولا يغربكم بالله الغرور ، أى : الشيطان ، كما روى عن ابن عباس وغيره ، بأن يمحلكم على المعاصى بتزيينها لكم وهو أى هيبة . كل شيء غرك حتى تمسّى الله تعالى -- فهو غرور سواء أكان شيطاناً أم غيره . وعلى ذلك ذهب الراغب فقال : الغرور كل ما يغر الإنسان من مال أو جاه أو شهوة أو شيطان . . . وأصل الغرور : غر فلان فلانا ، إذا أصاب غره ، أى : غفلته ، ونال منه ما يريد ، والمراد به الخداع .

والظاهر أن د بالله ، صلة يغربكم ، أى : لا يخدعنكم بذكر شيء من شئونه -- تعالى -- ، يحركم بها على معاصيه -- سبحانه -- (١) .

ثم بين -- سبحانه -- جانباً من الأمور التى استأثر عز وجل بعلمها فقال : د إن الله عنده علم الساعة ، أى : عنده وحده علم وقتها ، وعلم قيامها ، كما قال -- تعالى -- : د يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل

إنما علمها عند ربى ، لا يعلمها لوقتها إلا هو . . . (١) .

• وينزل الغيث ، أى : وينزل بقدرته المطر ، ويعلم وحده وقت نزوله .
 • ويعلم مافى الأرحام ، أى : ويعلم مافى أرحام الأمهات من ذكر أو أنثى .
 • وما تدرى نفس ، من النفوس كائنة من كانت « ماذا تكسب غدا » ، من
 خير أو شر ، ومن رزق قليل أو كثير ، لأنها لا تملك حرمها إلى الغد .
 • وما تدرى نفس ، من النفوس — أيضاً — كائنة من كانت « بأى
 أرض تموت » ، أى ، بأى مكان ينتهى أجلها .
 • إن الله ، — تعالى — « عليهم » بكل شئ . « خير » بما يجرى فى
 نفوس عباده .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، جملة من الأحاديث
 والآثار ، منها ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال :
 قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن
 إلا الله . ثم قرأ هذه الآية .

ومن مجاهد قال : جاء رجل من أهل البادية فقال للنبي — صلى الله عليه
 وسلم — : « إن امرأتى حبلى فأخبرنى ما تلد ؟ » وبلادنا جديبة فأخبرنى متى ينزل
 الغيث ؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرنى متى أموت ، فأنزل الله الآية (٢) .
 وهذه الأمور الخمسة من الأمور التى استأثر الله — تعالى — بها على
 سبيل العلم اليقيني الشامل المطابق للواقع . .

ولا مانع من أن يطلع الله — تعالى — بفضلہ وكرمه ، بعض أصفياه
 على شئ منها .

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٥٧

ولست المغيبات محصورة في هذه الخمسة ، بل كل غيب لا يله إلا اى
 — تعالى — داخل فيما استأثر الله — تعالى — بعلمه ، وإنما خصت هذه
 الخمسة بالذكر لأنها من أم المغيبات ، أولاه السؤال كان عنها .

وما يخبر به المنجم والطبيب وعلماء الأرصاد الجوية من الأمور التى لم
 تتكشف بعد ، فبناء على الظن لا على اليقين ، وعلى احتمال الخطأ والصواب
 أما علم الله — تعالى — بهذه الأمور وغيرها ، فهو علم يقينى قطعى
 هامل لا يحتمل للظن أو الفك أو الخطأ .

وصدق الله إذ يقول : وإن من شئ إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا
 بقدر معلوم .

وبعد : فهذا تفسير محرور لسورة لقمان ، نسأل الله تعالى أن يجعله
 خالصاً لوجهه ، وثانفا لعباده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
 القاهرة — مدينة نصر
 الخميس ٢٥ من شعبان سنة ١٤٠٥ هـ
 كتبه الراجى عفو ربه
 محمد سيد طنطاوى

٢٥ من إبريل سنة ١٩٧٥ م

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة	١٣٣
١	ألم ..	١٣٦
٦	ومن الناس من يشتري لهو الحديث ..	١٤٧
٨	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ..	١٤٧
١٢	ولقد آتينا لقمان الحكمة ..	١٥٣
٢٠	ألم تروا أن الله سخر لكم ..	١٥٦
٢٢	ومن يسلم وجهه لله وهو محسن ..	١٩٦
٢٧	ولو أن ما فى الأرض من شجرة ..	١٧٢
٢٩	ألم تر أن الله يولج ..	١٧٢
٣٥	يا أيها الناس اتقوا ربكم ..	١٨٠

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سُورَةُ السَّجْدَةِ

الدكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي الديار المصرية

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١ - سورة السجدة ، هي السورة الثانية والثلاثون في ترتيب المصحف
وكان نزولها بعد سورة المؤمنين ، ، أى : أنها من أواخر السور المسكية .
قال الألوسى ماملاً خصه : وتسمى - أيضاً - بسورة المضاجع ، .
وهى مكية ، كما روى عن ابن عباس .

وروى عنه أنها مكية سوى ثلاث آيات ، تبدأ بقوله - تعالى - : « أفن
كان مؤمناً كمن كان فاسقاً . . . » وهى تسع وعشرون آية فى البصرى .
وثلاثون آية فى المصاحف الباقية . . . (١) .

ومن فضائل هذه السورة ما رواه الشيخان عن أبى هريرة قال : كان النبى
- صلى الله عليه وسلم - يقرأ فى الفجر يوم الجمعة « آمَن . تنزيل ، السجدة .
و « هل أنى على الإنسان ، . »

وروى الإمام أحمد عن جابر قال : « كان النبى - صلى الله عليه وسلم -
لا ينام حتى يقرأ ، هذه السورة ، وسورة تبارك (٢) . »

٢ - وتبدأ هذه السورة الكريمة ، بالثناء على القرآن الكريم ، ويبيان أنه
من عند الله - تعالى - ، وبالرد على الذين زعموا أن الرسول - صلى الله
عليه وسلم - قد افتراه من عند نفسه . . .

(١) تفسير الألوسى ٢١٣ ص ١١٥

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٦٣

ثم تسوق ألوانا من نعم الله - تعالى - على عباده ، ومن مظاهر قدرته ، وبديع خلقه ، وشمول إرادته ، وإحسانه لكل شيء خلقه ، ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين . . .

٣ - ثم تذكر السورة الكريمة بعد ذلك جانبا من شبهات المشركين حول البعث والحساب ، وترد عليها بما يبطالها ، وتصور أحوالهم عندئذ يقفون أمام خالقهم للحساب تصويرا مؤثرا مرعيا قال - تعالى - : « ولوترى إذ المجرمون فاكسواء وسهم هذرهم ، ربنا أبهرنا وسمجنا ، فأرجعنا فعمل صالحا إنا موقنون . . . »

٤ - وبعد أن تذكر السورة الكريمة ما أعدّه الله - تعالى - للمؤمنين من ثواب لا تعلمه نفس من الأنفس ، وما أعدّه للكافرين من عقاب .. بعد كل ذلك تبين أن عدلته - تعالى - قد اقتضت عدم المساواة بين الأخيار والأشرار وإنما يجازى كل نفس على حسب عمله .

قال - تعالى - : « أفن كان مؤمنا كن كان فاسقا ، لا يستون . »

٥ - ثم تشير السورة الكريمة بعد ذلك إلى ما أعطاه الله - تعالى - لنبيه - موسى - عليه السلام - من نعم ، وما منحه للصالحين من قومه من منن ، لكي يتأسس بهم المؤمنون ولقد آتينا موسى الكتاب فلا يكن في مرة من لقائه ، وجعلناه هدى لبني إسرائيل ، وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا . وكانوا بآياتنا يوقنون . . .

٦ - ثم حضرت السورة الكريمة المشركين على التدبر والتفكر في آياته - الله - تعالى - ، ونهتهم عن الجحود والعناد ، وحكت جانبا من سفاهاتهم ، وأمرت النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يرد عليهم ، وأن يعض في طريقه دون أن يعير سفاهاتهم اهتماما .

قال - تعالى - : ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين . قل يوم الفتح
لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ، فأعرض عنهم وانتظر إنهم
منتظرون . .

٧ - وبعد فهذا عرض إجمالى لسورة السجدة ، ومنه نرى أنها آخر
آيات الدلالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى أن القرآن حق ، والبعث
حق ، والحساب حق ، والجزاء حق . .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

٣ من شعبان ١٤٠٥ هـ - ٢٣ / ١٩٨٤ م كتيبہ الراجی عفوریہ

د . محمد سید طنطاوی

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ٣ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ ٤ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ٥ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ٦ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ٧ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨ يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ٩ ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٠ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ١١ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ١٢ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ١٣ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ١٤ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ١٥

سورة السجدة من السور التي افتتحت ببعض حروف التهجى وقد سبق

أن ذكرنا آراء العلماء في ذلك بشيء من التفصيل عند تفسيرنا لسور:

البقرة، وآل عمران، والأعراف . .

وقلنا ماملخصه : إن أقرب الأقوال إلى العرواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في إفتتاح بعض السور ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن .

فكان الله - تعالى - يقول لأوائك الكافرين المعارضين في أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفاً من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ومنظوماً من حروف ، وهى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم .

فإن كنتم فى شك من كونه منزلاً من عند الله فهاقوا مثله ، وادعوا من شتم من الخلق لى يعاونكم فى ذلك ، أوهاقوا عشر سور من مثله ، أو سورة من مثله . .

ومع كل هذا التساهل فى التحدى ، فقد عجزوا وأقبلوا خاسرين ، وثبت بذلك أن القرآن من عند الله - تعالى - وحده .

وقوله - تعالى - : « تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ، بيان لمصدر القرآن الكريم وأنه لا شك فى كونه من عند الله - عز وجل -

وقوله : « تنزيل للكتاب ، مبتدأ ، وخبره « من رب العالمين ، وجملة « لا ريب فيه ، معترضة بينهما ، أو حال من الكتاب . (١) .

أى : تنزيل هذا الكتاب عليك - أيها الرسول الكريم - كائن من رب العالمين ، وهذا أمر لا شك فيه ، ولا يخالطه ريب أو تردد عند كل عاقل . وعجل - سبحانه - بنفى الريب ، حيث جمعه بين المبتدأ والخبر ، لبيان أن

هذه القضية ليست محلا للشك أو الريب ، وأن كل منصف يعلم أن هذا القرآن من رب العالمين .

و د أم ، في قوله — تعالى — : د أم يقولون افتراه ، هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة .

والاستفهام للمعجب من قولهم وإنكارهم .

والافتراء : الاختلاق . يقال : فلان افترى الكذب ، أى : اختلقه . وأصله من الفرى بمعنى قطع الجلد ، وأكثر ما يكون للإنسان .

والمعنى : بل أيقول هؤلاء المشركون ، إن محمداً — ﷺ — ، قد افترى هذا القرآن ، واختلقه من عند نفسه . .

وقوله — عز وجل — : د بل هو الحق من ربك ، رد على أقوالهم الباطلة .

أى : لا تستمع — أيها الرسول الكريم — إلى أقاويلهم الفاسدة ، فإن هذا القرآن هو الحق الصادر إليك من ربك — عز وجل —

ثم بين — سبحانه — الحكمة في إرساله — صلى الله عليه وسلم — وفى إنزال القرآن عليه فقال : د لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون . .

والإنذار : هو التخويف من ارتكاب شيء سوء عاقبته . و د ما ، نافية و د نذير ، فاعل د أتاهم ، و د من ، مزيدة للتأكيد .

أى : هذا القرآن — يا محمد — هو معجزتك الكبرى ، وقد أنزلناه إليك لتنذر قوما لم يأتهم نذير من قبلك بما جنتهم به من هدايات وإرشادات وآداب .

وقد فعلنا ذلك رجاء أن يهتدوا إلى الصراط المستقيم ، ويستقبلوا دعوتك والطاعة والاستجابة لما تدعوهم إليه .

ولا يقال : إن إسماعيل - عليه السلام - قد أرسل إلى آباء هؤلاء العرب الذين أرسل الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليهم ، لأن رسالة إسماعيل قد اندرست بطول الزمن ، ولم ينقلها الخلف عن السلف فكانت رسالة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى قومه ، جديدة في منهجها وأحكامها وتشريعها .

ثم أثنى - سبحانه - على ذاته ، بما يستحقه من إجلال وتعظيم وتقديس فقال : « الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام .. »

والأيام جمع يوم ، واليوم فى اللغة مطلق الوقت ، أى : فستة أوقات لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى -

وهو - سبحانه - قادر على أن يخلق السموات والأرض وما بينهما فى لحظة أو لحظة ، ولكنه - عز وجل - خلقهن فى تلك الأوقات ، لكى يعلم عباده النأى والتبثبث فى الأمور .

قال القرطبى : « ستة أيام ، قال الحسن : من أيام الدنيا - وقال ابن عباس : « إن اليوم من الأيام الستة ، التى خلق الله فيها السموات والأرض مقداره ألف سنة من سننى الدنيا . . » (١) »

وقال بعض العلماء ما ملخصه : وليست هذه الأيام من أيام هذه الأرض التى نعرفها ، إذ أيام هذه الأرض ، مقياس زمنى ناشئ من دورة هذه الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة ، تؤلف ليلاً ونهاراً على هذه الأرض ، وهو مقياس يصلح لنا نحن أبناء هذه الأرض الصغيرة الضئيلة .

أما حقيقة هذه الأيام الستة المذكورة في القرآن ، فعلمها عند الله ، ولا سبيل لنا إلى تحديد لها وتعيين مقدارها ، فهي من أيام الله التي يقول عنها : « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » (١) .

وقوله — سبحانه — : « ثم استوى على العرش ، إشارة إلى استعلائه وهيئته على شئون خلقه .

وقال بعض العلماء : وعرش الله — تعالى — عما لا يعلمه البشر إلا بالاسم . . .
وقد ذكر في إحدى وعشرين آية ، وذكر الاستواء على العرش في سبع آيات .
أما الاستواء على العرش ، فذهب سلف الأمة ، إلى أنه صفة لله — تعالى —
بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل ، لا استحالة وإنصافه — سبحانه —
بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه عما لا يليق به : « ليس كمثل شيء وهو
اليسميع البصير » .

وأنه يجب الإيمان بها كما وردت ، وتفويض العلم بحقيقتها إليه — تعالى — .
قال الإمام مالك : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ،
والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .
وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعا على الإيمان بالصفاء ،
ومن غير تفسير ولا تشبيه .

وقال الإمام الرازي : إن هذا المذهب هو الذي نقول به ونختاره .
ونعتمد عليه . . . (٢)

(١) في ظلال القرآن ج ٢١ ص ٥١٠

(٢) راجع تفسير صفوة البيان ص ٢٦٣ فضيلة الشيخ حسين محمد مخلوف

وقوله - سبحانه - : « ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تنفكرون ، أى : ما لكم - أيها الناس - إذا تجاوزتم حدوده - عز وجل - ومن ولى ، أى : من ناصر ينصركم إن أراد عقابكم ، ولا شفيع ، يدفع لكم عنده لىكى يعفو عنكم ، أفلا تعقلون هذه المعانى الواضحة ، وتسمعون هذه المواضع البليغة ، التى من شأنها أن تحملكم على التذكر والاعتبار والطاعة للنامة لله رب العالمين .

فالأية الكريمة جمعت فى توجيهاتها الحكيمة ، بين مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وبين التهريب من معصيته ومخالفة أمره ، وبين الخوض على التذكر والاعتبار .

ثم أضاف - سبحانه - إلى ما سبق أن وصف به ذاته ، صفات أخرى تليق به ، فقال : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ، .

وقوله - تعالى - : « يدبر » من التدبير بمعنى الإحكام والإنقان ، والمراد به هنا : إيجاد الأشياء على هذا النحو البديع الحكيم الذى نشاهده وأصل التدبير : النظر فى أعقاب الأمور بحمودة العاقبة .

وقوله : « يعرج » من العروج بمعنى الصعود والارتفاع والصعود إليه - تعالى - .

والضمير فى «إليه» يعود إلى الأمر الذى دبره وأحكمه - سبحانه -

أى : أن الله - تعالى - هو الذى يحكم شئون الدنيا السماوية والأرضية إلى أن تقوم الساعة ، وهو الذى يحملها على تلك الصورة البديعة المتقنة ، ثم تصعد إليه - تعالى - تلك الأمور والشئون المدبرة فى يوم ،

عظيم هو يوم القيامة ، كان مقداره ألف سنة مما تعدون ، من أيام الدنيا .
قال الألوسي ما ملخصه : وقوله : من السماء إلى الأرض ، متعلقان
بقوله : يدبر ، ومن ابتدائية ، وإلى انتهائية ، أى : يدبره - تعالى -
على وجه الاتقان ومراعاة الحكمة ، مزالا له من السماء إلى الأرض ، وإزاله
من السماء باعتبار أسبابه ، فإن أسبابه سماوية من الملائكة وغيرهم .

وقوله : ثم يرج إليه ، أى : ذلك الأمر بعد تدبيره ، وهذا العروج
مجاز عن ثبوته في علمه .. أو عن كتابته في صحف الملائكة بأمره - تعالى - (١)
وقال بعض العلماء : وقد ذكر - سبحانه - هنا أنه يدبر الأمر من السماء
إلى الأرض ثم يرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ، .
وذكر في سورة الحج ، وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ، .
وذكر سورة المعارج ، ترج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره
خمسین ألف سنة ، واجمع بين هذه الآيات من وجهين :

الأول : ما جاء عن ابن عباس من أن يوم الألف في سورة الحج ، هو
أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض ، ويوم الألف
في سورة السجدة ، هو مقدار سهر الأمر وهروجه إليه - تعالى - ويوم
الحسين ألفاً - في سورة المعارج - هو يوم القيامة .

الثاني : أن المراد بجميعها يوم القيامة ، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن
والكافر ويدل لهذا الرأي قوله - تعالى - : فذلك يوم هير ، على
الكافرين غير يسر ، (٢) .

(١) تفسير الألوسي ج ٢١ ص ١٣٠

(٢) تفسير أضواء البيان ج ٦ ص ٣ هـ للشيخ أمين الشنقيطي

أى : أن يوم القيامة بتفاوت طوله بحسب اختلاف الشدة ، فهو يعادل فى حالة ألف سنة من سنى الدنيا ، ويعادل فى حاله أخرى خمسين ألف سنة

واسم الإشارة فى قوله : « ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، يعود إلى الله - تعالى - ، وهو مبتدأ ، وما بعده أخبار له - عز وجل - .

أى : ذلك الذى اتصف بتلك الصفات الجليلة ، وفعل تلك الأعمال المتقنة الحكيمة ، هو الله - تعالى - : « عالم الغيب والشهادة ، أى : عالم كل ما غاب عن الحس ، وكل ما هو مشاهد له ، لا يخفى عليه شئ . مما ظهر لأبطن ، العزيز ، الذى لا يغلبه غالب ، الرحيم ، بعباده .

« الذى أحسن كل شئ خلقه ، أى : الذى أحكم وأتقن كل شئ خلقه وأوجده فى هذا الكون ، لأنه - سبحانه - أوجده على النحو الذى تقتضيه حكمته ، وتستدعيه مصلحة عباده .

قال الشوكانى : وقرأ الجمهور « خلقه » - بفتح اللام - على أنه فعل ماض صفة لشئ ، فهو فى محل جر ، أو صفة للضاف فيكون فى محل نصب .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ابن عامر : « خلقه » بسكون اللام ، وفى نصبه أوجه : الأول : أن يكون بدلاً من « كل شئ » ، بدل اشتمال ، والضمير هائد على كل شئ . ، وهذا هو المشهور . . . (١) .

والمراد بالإنسان فى قوله - تعالى - : « وبدأ خلق الإنسان من طين » آدم - عليه السلام - . أى : وبدأ خلق أيكم آدم من طين ، فصار على أحسن صورة ، وأبدع شكل . ثم جعل نسله ، أى : ذريته ، وسميت بذلك لأنها تنسل وتنفصل منه

« من سلافة ، أى : من خلاصة ، وأصلها ما يسئل ويخلص بالتصفية .

« من ماء مهين ، أى : ممتن لا يهتم بشأنه ، ولا يعتنى به ، والمقصود به :
للنبي الذي يخرج من الرجل .

« ثم سواه ، أى : هذا المخلوق الذي أوجده من طين ، أو من ماء مهين .
والمراد : ثم عدل خلقه ، وسوى شكله ، وتاسب بين أعضائه ، وآتاه في
أحسن صورة .

« ونفخ فيه - سبحانه - د من روحه ، أى : من قدرته ورحمته .
التي صار بها هذا الإنسان إنسانا كاملا في أحسن تقويم .
وإضافة الروح إليه - تعالى - للتحريف والتكريم لهذا المخلوق ، كما
في قولهم بيت الله .

« وجعل لكم ، بعد ذلك ، السمع ، الذي تسمعون به ، والأبصار ، التي
تبصرون بها ، والأفئدة ، التي تعقلون بها ، وتحسبون الأشياء بواسطتها .
وقوله : « قليلا ما تشكرون » ، بيان لموقف بنى آدم من هذه النعم
المتكاثرة والمتنوعة ، ولغظ « قليلا » منصوب على أنه صفة لمحذوف وقع
معمولا لتشكرون .

أى : شكرا قليلا تشكرون ، أو زمانا قليلا تشكرون .

وهكذا بنو آدم - إلا من عصم الله - ، أوجدهم الله - تعالى -
بقدرته ، وحضر المنفعة لهم ومصالحهم ما سخر من مخلوقاته ، وصانهم في كل
مراحل خلقهم بأنواع من الصيانة والحفظ . . . ومع ذلك فقليل منهم هم
الذين يشكرونه - عز وجل - على نعمه ، وصدقه - سبحانه - حيث يقول
« وقليل من عبادى الشكور » .

ثم حكى - سبحانه - عذاب المشركين وود عليها ، وصور أحوالهم
الآلية هند ما تقبض الملائكة أرواحهم ، فقال - تعالى - :

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَأُنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ
بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي
وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا
رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا
مُقِرُّونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ
 مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا
نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قال القرطبي : قوله - تعالى - : وقالوا أنذا ضلنا في الأرض ، هذا
قول منكرى البعث أى : هلكنا وبطلنا وصرنا زابا ، وأصله من قول
العرب : ضل الماء في اللبن إذا ذهب ، والعرب تقول لأشى غلب عليه غيره
حتى خفى فيه أثره : قد ضل . . . (١) .

أى : وقال الكافرون على سبيل الإنكار ليوم القيامة وما فيه من
حساب أنذا صارت أجسادنا كالزباب واختلطت به ، أفنعاد إلى الحياة
مرة أخرى ، ونخلق خلقاً جديداً . . . ؟

وقوله - سبحانه - : بل هم بلباء هم كافرون ، إضراب وانتقال من

حكاية كفرهم بالبعث والحساب إلى حكاية ما هو أشنع من ذلك وهو كفرهم ببقاء الله - تعالى - الذى خلقهم ورزقهم وأحيامهم وأماتهم . . .

أى : بل هم لانطماس بصائرهم ، واستيلاء العناد والجهل عليهم ، ببقاء ربهم يوم القيامة ، كافرون جاحدون ، لأنهم قد استبعدوا إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم ، مع أن الله - تعالى - قد أو جددهم ولم يكونوا شيئا مذكورا .
ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن مرددهم إليه لا محالة بعد أن يقبض ملك الموت أرواحهم فقال : **قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون .**

وقوله **يتوفاكم** ، من التوفى . وأصله أخذ الشيء . وأفيا تاما . يقال : **توفاه الله** ، أى : استوفى روحه وقبضها ، وتوفيت مالى بمعنى استوفيته والمراد بملك الموت : **عزرائيل .**

أى : قل - أيها الرسول الكريم - فى الرد على هؤلاء الجاحدين : سيتولى قبض أرواحكم عقب انتهاء آجالكم ملك الموت الذى كلفه الله - تعالى - بذلك . ثم إلى ربكم ترجعون ، فيجازيكم بما تستحقونه من عقاب ، بسبب كفركم وجحودكم .

وأسنده - سبحانه - هنا التوفى إلى ملك الموت ، لأنه هو المأمور بقبض الأرواح . وأسنده إلى الملائكة فى قوله - تعالى - **فكيف إذا توفتهم الملائكة** ، لأنهم أعوان ملك الموت الذين كلفهم الله بذلك .

وأسنده - سبحانه - إلى ذاته فى قوله : **الله يتوفى الأنفس حين موتها ، لأن كل شئ كائن ما كان ، لا يكون إلا بقضائه وقدره .**

ثم صور - سبحانه - أحوال هؤلاء الكافرين ، عندما يقفون للحساب ، تصويرا مرعبا مخيفاً فقال : **ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم .**
وجواب **ولو** ، محذوف . والتقدير : لرأيت شيئا نقشعر من هول الأبدان .

وقوله : « فاكسوا ، من النكس ، وهو قلب الشيء على رأسه كالنكيس .
وفعله من باب نصر - والمخطاب يصح أن يكون للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، أو لكل من يصلح له .

أى : ولو ترى - أيها الرسول الكريم - حال أولئك المجرمين الذين أنكروا البعث والمجازاة ، وهم يقفون أمام خالقهم بذلة وخذى ، لحسابهم على أعمالهم . . لو ترى ذلك لرأيت شيئا ترعد له الفرائص ، وتهتز منه القلوب .
وقوله : « أبصرتنا وسمعنا فارجعنا لعمل صالحا إنا موقنون ، حكاية لما يقولونه في هذا الموقف المعصيب .

أى : يقولون بذلة وندم : ياربنا نحن الآن نبصر مصيرنا ، ونسمع قولك وتندم على ما كنا نفيه من كفر وضلال ، « فارجعنا ، إلى الدنيا ، لى «نعمل» عملا صالحا إنا موقنون ، الآن بأن ما جاءنا به رسولك هو الحق ، وأن البعث حق ، وأن الجزاء حق ، وأن الجنة حق وأن النار حق .

ولكن هذا الايمان والاعتراف منهم ، قد جاء فى غير أوائه ، ولذا لا يقبله - سبحانه - منهم ، ولذا عقب - سبحانه - على ما قالوه : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها . . . » .

أى : ولو شئنا أن نؤتى كل نفس رشدها وهداها وتوفيقها إلى الإيمان ، لفعلنا ، لأن إرادتنا نافذة ، وقدرة لا يعجزها شيء .
ولكن حق القول منى ، أى : ولكن ثبت ونحقق قولى .

« لآملأن جهنم من الجنة ، أى من الجن وسموا بذلك لاستنارهم عن الأنظار .
ومن الناس أجمعين ، بسبب فسوقهم عن أمرنا ، وتمكدهم لرسالتنا .
فالقصد من الآية للكرامة بيان أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شيء ،
إلا أن حكمته - سبحانه - قد اقتضت أن الذين سبق فى علمه أنهم يؤثرون الضلالة على الهداية ، لسوء استعدادهم ، يكون مصيرهم إلى النار ، وأما الذين

آثروا الهداية على الضلالة لنقاء نفوسهم ، وكال استعدادهم ، فيكون مصيرهم إلى جنة عرضها السموات والأرض .

كما أن حكمته - سبحانه - قد اقتضت أن يميز الإنسان على غيره ، بأن يجعل له طبيعة خاصة يملك معها اختيار طريق الهدى أو طريق الضلال . كما قال - تعالى - : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . إنا هديناه السبيل ، إما شاكرا وإما كفورا . »

ثم بين - سبحانه - ما يقال لهؤلاء المجرمين عندما يلقي بهم في جهنم فقال - تعالى - : « وذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم ، وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون . »

والذوق حقيقة لمادراك المطعمومات . والأصل فيه أن يكون في أمر مرغوب في ذوقه وطلبه . والتعبير به هنا عن ذوق العذاب من باب التهكم بهم . واللقاء في قوله : « وذوقوا » ، لتعريب الأمر بالذوق على ما قبله والباء للسببية . والمراد بالنسيان لازمه ، وهو الترك والإهمال .

أى : ويقال لهؤلاء المجرمين عندما يلقي بهم في النار: ذوقوا الهيبة واسميرها بسبب نسيانكم وإهمالكم وجودكم ليوم القيامة وما فيه من حساب ، وإنا من جانبنا قد أهملناكم وتركناكم ، بسبب إصراركم على كفركم ، وذوقوا العذاب الذي أنتم مخلدون فيه بسبب أعمالكم القبيحة في الدنيا . جرام وفاقا . وكرر - سبحانه - لفظ « ذوقوا » على سبيل التأكيد ، وزيادة التعرُّيع والتأنيب .

ثم ترك السورة الكريمة هؤلاء المجرمين يذوقون العذاب ، وتنتقل إلى الحديث عن مشهد آخر ، هن مشهد يشرح النفوس ، ويهيج القلوب ، إنه مشهد المؤمنين الصادقين ، وما أعد الله - تعالى - من ثواب قال - تعالى - :

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا
 وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ
 الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾
 فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾
 أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾
 وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا
 فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِء تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾
 وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ
 يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا
 إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
 فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾
 وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا
 يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا
 فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

أى : « إنما يؤمن ، وبصدق ، بآياتنا ، الدالة على قدرتنا ووحدة إيتنا ، أصحاب النفوس النقية الصافية ، الذين إذ ذكروا بها ، أى : بهذه الآيات .
 « خروا سجدا ، لله - تعالى - من غير تردد ، وسبحوا بحمد ربهم ، أى :
 ونزهوه عن كل مالا يليق به - عز وجل -

« وهم لا يستكبرون ، عن طاعته - سبحانه - وعن الانقياد لأمره ونهيهِ .
 ثم صور - سبحانه - أحوالهم في عبادتهم وتقربهم إلى الله ، تصويرا
 يديها فقال . « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ، .
 والتجافى : التحرك إلى جهة أعلى . وأصله من جفا فلان المرح من
 فرسه ، إذا رفعه ، ويقال تجافى فلان عن مكانه ، إذا انتقل عنه .

والجنوب : جمع جنب ، وأصله الجارحة ، والمراد به الشخص .

والمضاجع : جمع مضجع ، وهو مكان الانكاء للنوم .

والمعنى : أن هؤلاء المؤمنين الصادقين ، تتنحى وترتفع أجسامهم ، عن
 أماكن نومهم ، وراحتهم ، حالة كونهم يدعون ربهم بإخلاص وإتابة
 « خوفا ، من - خطاه عليهم ، « وطمعا ، في رضا عنهم .

« ومما رزقناهم ، من فضلنا وخيرنا دينفقون ، في وجوه البر والخير .

وقوله - سبحانه - : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين . . . »
 بيان للعطاء الجزيل ، والثواب العظيم .

أى : فلا تعلم نفس من النفوس سواء أكانت الملك مقرب ، أم لنبي مرسل -
 ما أخفاه الله - تعالى - هؤلاء المؤمنين المتجهدين بالليل والناس نيام ،
 من ثواب تقربه أعينهم ، وتساعد به قلوبهم ، وتبتج له نفوسهم . .

وهذا العطاء الجزيل إنما هو بسبب أعمالهم الصالحة فى الدنيا .

وهكذا نرى فى هذه الآيات الكريمة صورة مشرقة لعباد الله الصالحين ،
والثواب الذى لا تحيط به عبارة ، والذى أكرمهم الله — تعالى — به .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات ، عدداً من الأحاديث
الواردة فى فضل قيام الليل ، منها ما رواه الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضى
الله عنه . قال : كنت مع النبى (ﷺ) فى سفر ، فأصبحت يوماً قريباً
منه ، ونحن نسير ، فقلت : يا نبى الله ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ،
ويباعدنى من النار ، فقال : لقد سألت عن عظيم ، وأنت ليسير على من يسره
الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ،
وتصوم البیت ، ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة
تطفىء الخطيئة ، وصلاة الرجل فى جوف الليل شعار الصالحين ، ثم قرأ
(﴿ تَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ... ﴾)

وعن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله (ﷺ) : إذا جمع الله
الأوليين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق :
- سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالمكرم ، ثم يرجع فينادى : ليقيم الذين
كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله (ﷺ)
إن الله — تعالى — قال : أعددت لعبادى الصالحين ، ما لا عين رأت ،
ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، (١) .

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك أن هدايته قد إنقضت هدم التسوية بين

الآخيار والأشرار ، وإن كل إنسان إنما يجازى يوم القيامة على حسب عمله . فقال — تعالى — : « أفن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً » .

والاستفهام في قوله : « أفن كان مؤمناً .. الإلكار والفسوق : الخروج عن طاعة الله .

أى : أفن كان في هذه الدنيا مؤمناً بالله حق الإيمان ، كمن كان فيها فاسقاً وخارجاً عن طاعة الله — تعالى — وعن دينه الذى ارتضاه لعباده ؟

كلا ، إنهم لا يستوون لافى سلوكهم وأعمالهم ، ولا فى جزائهم الدينى . أو الآخرى .

وقد ذكروا أن هذه الآية نزلت فى شأن الوليد بن عقبة وعلى بن أبى طالب — رضى الله عنه — ، حيث قال الوليد لعلى : « أنا أبسط عنك أسناناً ، وأحد سنناً ، وأملأ فى السكتية جسداً » ، فقال له على : « أسكت فإنما أنت فاسق فنزلت هذه الآية (١) .

ثم فصل — سبحانه — حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الفاسقين ، فقال : « أما الذين آمنوا ، بالله حق الإيمان ، وعملوا ، الأعمال الصالحات ،

« فلهم جنات المأوى ، أى : فلهم الجنات التى يأون إليها ، ويسكنون فيها » نزلاً بما كانوا يعملون ، والنزل : أصله ما يهبط للضييف النازل من الطعام والمشرب ، ثم عمم فى كل عطاء .

أى : فلهم جنات المأوى ينزلون فيها نزولاً مصحوباً بالتمكريم والتشريف جزاء أعمالهم الصالحة التى عملوها فى الدنيا .

« وأما الذين فسقوا ، أئى : خرجوا عن طاعتنا ، وعن دعوة رسولنا
— صلى الله عليه وسلم —

« فأولهم النار ، أئى : فنزائهم ومسكنهم ومستقرهم النار وبئس القرار .
« كما أرادوا أن يخرجوا منها ، هرباً من طيبتها وسميرها وعذابها .
« أعيدوا فيها ، مرغمين مكرهين ، وردوا إلينا مهانين مستذلين .
« وقبل لهم ، على سبيل الزجر والتأديب وزيادة الحسرة فى قلوبهم .
« ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ، فى الدنيا ، وتستهنون
بمن ينذركم به ، ويخوفكم منه .

« وننفيتهم عن العذاب الأدنى ، أئى الآهون والأقرب والأقل وهو
عذاب الدنيا ، عن طريق ما ننزله بهم من أمراض وأسقام ومصائب
متنوعة .

« دون العذاب الأكبر ، أئى : الأشد والأعظم والأبقى ، وهو عذاب
الآخرة .

« لهم يرجعون ، عا م فيه من شرك وكفر وفسوق وهسيان .
ثم بين — سبحانه — حال من يدعى إلى الهدى فيمرض عنه ، فقال :
« ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ، .

أئى : لا أحد أشد ظلماً وكفراً ممن ذكره المذكر بالآيات الدالة على
وحدانية الله — تعالى — وقدرته ، وعلى أن دين الإسلام هو الحق ، ثم
أعرض عنها جحوداً وعناداً .

« إنا من المجرمين منتقمون ، أئى : إنا من أهل الإجمام والجحود
لآياتنا منتقمون انتقاماً بظلمهم وبهينهم .

قال صاحب الكشف : « ثم ، في قوله (ثم أعرض عنها) الاستبعاد . والمعنى : أن الإعراض عن مثل آيات الله ، في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل ، والفوز بالسعادة العظمى بعد التفكير بها مستبعد في العقل والعدل ، كما تقول لصاحبك : وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها ، لاستبعادا لتركها الإتهال . ومنه « ثم ، في بيت الخامسة :

لا يكشف الغم إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها
 لاستبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها ولا يتيقنها وأطلع على
 غماتها .

فإن قلت : هلا قيل : إنا منه منتقمون ؟ قلت : لما جمعه أظلم كل ظالم ثم
 توعد المجرمين طامة بالانتقام منهم ، فقد دل على إصابة الأظلم بالنصيب
 الأوفر من الانتقام ، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الآفاده (١) .

ثم أشارت السورة المكرمة بعد ذلك إلى ما أعطاه الله - تعالى - لنبيه
 موسى - عليه السلام - من نعم ، وما منحه للأصالحين من قومه من منن ،
 فقال - تعالى - :

« ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تسكن في قرية من لقاءه ،

والمراد بالكتاب في قوله - تعالى - : « ولقد آتينا موسى الكتاب ، التوراة
 التي أنزلها - سبحانه - لتكون هداية لبني إسرائيل .

قالوا : وإنما ذكر موسى لقربه من النبي - صلى الله عليه وسلم - ووجود
 من كان على دينه إلزاما لهم ، وإنما لم يختار عيسى - عليه السلام - للذكر
 والاستدلال ، لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته ، وأما النصاري

فكانوا يعترفوا بنبوة موسى - عليه السلام - (١)

والضمير المجرور في قوله : « فلا تكن في مرية من لقائه » يعود إلى موسى على أرجح الأقوال - أو إلى الكتاب .

أى : آتينا موسى الكتاب فلا تكن - أيها الرسول الكريم - في مرية أو شك من لقاء موسى للكتاب الذى أوحيناه إليه ، بقبول ورضا ونحمل لتكاليف الدعوة به ، فمكن مثله في ذلك ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك دون أن يخشى أحدا سواه .

قال الألوسى ما ملخصه : قوله : « ولقد آتينا موسى الكتاب » أى : جنس الكتاب « فلا تكن في مرية » أى : شك « من لقائه » أى : من لقائك ذلك الجنس .

وحمل بعضهم « الكتاب » على العهد ، أى الكتاب المعهود وهو التوراة . ونفيه - صلى الله عليه وسلم - من أن يكون في شك ، المقصود به أمته ، والتعريض بمن اتصف بذلك .

وفيل الكتاب ، المراد به التوراة ، وضمير « لقائه » عائد إليه من غير تقدير مضاف . ولقاء مصدر مضاف إلى مفعوله ، وفاعله موسى : فلا تكن في مرية من لقاء موسى الكتاب ، أو مضاف إلى فاعله ، ومفعوله موسى . أى : من لقاء الكتاب موسى ووصوله إليه . (٢) .

وهذا رأى الأخير الذى عبر عنه الألوسى - رحمه الله - بقوله « وقيل ، هو في رأينا أرجح الآراء ، وأمر بها إلى الصواب ، لبعده عن التكلف .

(١) حاشية الجمل على الجلائن ج ٣ ص ٤١٩

(٢) راجع تفسير الألوسى ج ٢١ ص ١٣٧

قال الجبل في حاشيته ، بعد أن ساق ستة أقوال في عودة الضمير في قوله : من لقائه ، : د وأظهرها أن الضمير إما لموسى ، وإما للكتاب ، أى : لا ترتب في أن موسىلقى الكتاب وأزل عليه ، (١) .

قال صاحب الكشف : والضمير في د لقائه ، له — أى لموسى — ، ومعناه : إنا آتينا موسى — عليه السلام — مثل ما آتيناك من الكتاب ، ولقائه مثل ما لقناك من الوحي ، فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ، ولقيت نظيره كقوله — تعالى — : فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ، فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك (٢) .

وقوله — تعالى — : د وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ، أى : وجعلنا الكتاب الذى أنزلناه على نبيينا موسى — عليه السلام — هداية لبنى إسرائيل إلى طريق الحق والسداد .

د وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، والأئمة : جمع إمام ، وهو من يقتدى به في الأمور المختلفة ، والمراد بهم هنا : من يقتدى بهم في وجه الخير والبر .

أى : وجعلنا من بنى إسرائيل أئمة في الخير والصلاح ، يهدون فهدم إلى الطريق الحق ، بأمرنا وإرادتنا وفضلنا ، وقد وفقناهم لذلك حين صبروا على أداء ما كلفناهم به من عبادات ، وحين تحملوا الشدائد والمحن في سبيل إعلاء كلمتنا .

فأنت ترى أن جعلهم أئمة في الخير لم يكن إعتباطاً ، وإنما كان بسبب

(١) حاشية الجبل ج ٣ ص ٤١٩

(٢) تفسير الكشف ج ٣ ص ٥١٦

صبرهم على الأذى ، وعلى مذاق الدعوة إلى الحق ، وعلى كل أمر يستلزم الصبر وحبس النفس .

وفى ذلك إرشاد وتعليم للمسلمين ، بأن يسلوكوا طريق الأنمة الصالحين ، ممن كانوا قباهم ، وأن يباغوا دعوة الله إلى غيرهم بصبر و يقين .

وقوله - سبحانه - : « وكانوا بأياتنا يوقنون ، زيادة فى مدحهم ، وفى تقرير أنهم أهل للإمامة فى الخير .

أى : وكانوا بسبب إدراكهم السليم لمعانى آياتنا : يوقنون إيقاناً جازماً بأنهم على الحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وبأنهم متبعون لشريعة الله - تعالى - التى لا يضل من اتبعها وسار على نهجها .

ثم أشار - سبحانه - إلى أن بنى إسرائيل جميعاً لم يكونوا كذلك وإنما كان منهم الأخيار والأشرار ، وأنه - تعالى - سيحكم بين الجميع يوم القيامة بحكمه العادل ، فقال : « إن ربك هو بفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو وحده الذى يتولى القضاء والحكم بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة ، فيما كانوا يختلفون فيه فى الدنيا من أمور متنوعة ، على رأسها ما يتعلق بالأمور الدينية .

ثم يسوق سبحانه - فى أواخر السورة ما من شأنه أن يهدى الضالين إلى الصراط المستقيم ، وما يرشدهم إلى مظاهر نعمه عليهم ، وما يزيد للنبي (ﷺ) ثباتاً على ثباته ، ويقيناً على يقينه ، فيقول - عز وجل - :

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ
يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا كُلُّ مَنْهُ
أَنَعْمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ
وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾

والاستفهام في قوله - تعالى - : د اولم يهد لهم كم اهلكنا ... ، لانكار
عدم اهتمامهم إلى ما ينفعهم مع وضوح أسباب هذا الاهتداء ، والواو للعطف
على مقدر يقتضيه المقام ، والخطاب للمشركون وعلى رأسهم كفار مكة ،
و د كم ، خبريه بمعنى كثير في محل نصب لأهلكنا .

والمعنى : أغفل هؤلاء المشركون عما أصاب الظالمين من قبلهم ، ولم
يتبين لهم - لانطماس بصائرهم - أننا قد أهلكنا كثيراً من أهل الأزمان
السابقة من قبلهم ، بسبب تمكدهم بآياتهم ، وإيثارهم الكفر على الإيمان

وقوله - تعالى - : ويمشون في مساكنهم ، حال من الضمير في د حالهم ،
لتسجيل أقصى أنواع الجحالة والعناد عليهم .

أى : أبلغ بهم الجهل والعناد أنهم لم يعتبروا بالقرون الماضية من قبلهم .
مع أنهم يمشون في مساكن هؤلاء السابقين ، ويمرون على ديارهم مصبحين
وممسين ، و يرون بأعينهم آثارهم الدارسة ، ويبيتهم الحواوية على عروشها

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يزيد فى تبكيهم وتقريعهم فقال : « إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون » .

أى : إن فى ذلك الذى يروونه من مصارع الغابرين ، وآثار الماضين ، لآيات بينات ، وهظات بليغات ، فهلا تدبروا فى ذلك ، واستمعوا إلى صوت الحق بتعقل وتفهم ؟

فقلوه - تعالى - : « أفلا يسمعون » ، حض لهم على الاستماع إلى الآيات الدالة على سوء هاقبة الظالمين ، بتدبر وتعقل وانعاض ، وتحول من الباطل إلى الحق ، قبل أن يحل بهم ما حل بأهل الأزمنة الفارة .

ثم نبههم - سبحانه - إلى نعمة من نعمه الكثيرة فقال : « أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعاً ، تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » ، والأرض الجرز : هى الأرض اليابسة التى جرز نباتها وقطاع ، إما لعدم نزول الماء عليها ، وإما لرعيه منها .

قال القرطبى ماملاً خصه : « والأرض الجرز هى التى جرز نباتها أى : قطاع ، إما لعدم الماء ، وإما لأنه وهى وأزيل ، ولا يقال للتى لا تثبت كالسباح جرز . وهو مشتق من قولهم : رجل جروز إذا كان لا يبقى شيئاً إلا أكله ، وكذلك نافذ جروز : إذا كانت تأكل كل شىء نجده ، وسيف جراز ، أى : قاطع . . . (١) » .

أى : أعزوا لم يشاهدوا بأعينهم ، أنا نسوق ، بقدرتنا ورحمتنا ، الماء ، الذى نحملة السحب ، إلى الأرض الجرز ، أى : اليابسة الخالية من النبات ، فينزل عليها .

« فنخرج به ، أى : فنخرج بهذا الماء النازل على الأرض الفاحلة زرعاً ،

كثيرا نافعاً ، تاكل منه ، أى : من هذا الرزق ، أنعامهم ، أى : تاكل منه ما يصاح لأكلها كالأوراق والأغصان وما يشبهه .

وقوله : وأنفسهم ، مطوف على أنعامهم . أى : تاكل أنعامهم من الرزق ما يناسبها ، ويأكل منه الناس ما يناسبهم كالبقول والحبوب .

وقدم - سبحانه - الأنعام على بنى آدم للترقى من الأدنى إلى الأشرى

وقوله - تعالى - : « أفلا يبصرون ، حض لهم على التأمل فى هذه النعم ، والحرص على شكر المنعم عليها ، وإخلاص العباداة له .

ثم حكى - سبحانه - ما كان عليه المشركون من غرور وإستخفاف بالوعيد فقال : « ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ،

والمراد بالفتح : الحكم والقضاء والفصل فى الخصومة بين المتخاصمين ، ومنه قوله - تعالى - حكاية عن شعيب - عليه السلام - : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ، .

أى : « احكم بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الحاكمين ، .

أى : ويقول المشركون للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه على سبيل الاستهزاء ، وإستعجال العقاب : متى هذا الذى نعد ثوفاً عنه من أن الله - تعالى - سيفصل بيننا وبينكم ، ويجعل لكم النصر ولنا الحزيمة ؟

لقد طال إنتظارنا لهذا اليوم الذى يتم فيه الحكم بيننا وبينكم ، فإن كنتم صادقين فى قولكم ، فادعوا ربكم أن يجعل هذا اليوم .

وهنا يأمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم بما يخسرهم فيقول : « قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون .

أى : قل - أيها الرسول - فى الرد على هؤلاء الجاهلين المفرودين : إن يوم الفصل بيننا وبينكم قريب ، وهو آت لا محالة فى الوقت الذى يحدده الله - تعالى - ويختاره ، سواء أكان هذا اليوم فى الدنيا ، عندما تموتون على

الكفر ، أم فى الآخرة عندما يحل بكم العذاب ، ولا ينفعكم إيمانكم ، ولا أنتم
تعملون أو تنظرون ، بل سينزل بكم العذاب سريعاً وبدون مهلة .

وما دام الأمر كما ذكرنا لك — أيها الرسول الكريم — فاعرض
عنهم وانتظر إنهم منتظرون .

أى : باعرض عن هؤلاء المشركين ، وعن أقوالهم الفاسدة دون أن
تلتفت إليها ، وامض فى طريقك أنت وأتباعك ، وانتظر النصرة عليهم
بفضلنا وإرادتنا . إنهم — أيضاً — منتظرون ما سيؤول إليه أمرك ، وسيكون
أمرك بخلاف ما يمكنون وما ينتظرون .

وبعد : فهذا تفسير بسيط لسورة السجدة ، نسأل الله — تعالى — أن
يجعله خالصاً لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة — مدينة نصر كتبه الراجى عفو ربه

مساء السبت : ٧ من شعبان سنة ١٤٠٥ هـ . محمد سيد طنطاوى

١٩٨٥ / ٤ / ٢٧ م

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة	١٨٧
١	الم ..	١٩٠
١٠	وقالوا أنذا ضللنا فى الأرض ..	١٩٩
١٥	إنما يؤمن بآياتنا الذين ..	٢٠٣
١٨	أفمن كان مؤمنا كن كان فاسقا ..	٢٠٣
٢٢	ولقد آتينا موسى الكتاب ..	٢٠٣
٢٦	أو لم يهد لهم كم أهلكنا ..	٢١٢



٧ من الباب الأخضر المشهد الحسينى

القاهرة ٩٣٦٠٠٨ ت